قتلت أبي

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

- **الكتاب:قتلت أبي**
- **المؤلف: رزيقة سلماني (صورية سلماني)**
- **نوع العمل:رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 25808 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 78-2**
- الغلاف: ببلومانيا
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

قتلت أبي

رواية

صورية سلماني

www.bbibliomania.com

2019

للأمانة فقط ، هذه الصورة مأخوذة من غوغل.

إهداء

إلى كل من ساندوني وآمنوا بقدراتي ، فجعلوا مني ملكة القوة في زمن ضعفي...

إلى أولئك الذين ساعدوني ولم يبخلوا عليّ بحرف ، فيما يتعلق باللغة الأمازيغية ولهجة تيزي وزو ، فأعطوا لروايتي عمرًا:

« منير تفات » ، و « مسّوسي رياض ».

إلى أولئك الذين حاولوا جاهدين إيقافي ، ووقفوا عقبة بيني وبين أحلامي. شكرا ، لقد زدتموني إصرارا للسعي نحو الأفضل دون خوف أو يأس.

إلى كل من آمنوا ولازالوا للآن يؤمنون بأن الحياة مواقف وبطولات ، ليس عرق ، نسب ، لغة أو عرش. فعاشوا حياتهم مقتنعين أن هناك ما يستحق أن يشغلوا بالهم بأحبتهم لا بمن يحقدون عليهم ، ويضعون للعنصرية مرتبة في قلوبهم ..

لابد أن الضجر دغدغ طويَّتك حين تقليبك لهاته الصفحات الفارغة الباهتة ، صح؟.

وقلت في نفسك ما هذا الجنون؟ وربما حتى فكرت في رميه ، وقليل من يدفعه الفراغ للفضول...

تُرى ، ماذا لو كانت حياتك مثل تلك الصفحات متشابهة ، بلا معنى أيامك ، فارغ الفؤاد مثلها؟ لاشيء يضفي عليها السعادة غير حبر يبكي لها ، يعشقها ، فيحيله إلى جنة رغم جحيم الآلام والآهات...

للتنويه؛ أسماء شخوص هاته الرواية ، ما هي إلا من وحي الخيال...

*****

لماذا أنا؟

تركض بروح شاردة ، مذعورة ، مرعوبة...

كأنها فرَّت من سُوَقة ، تفترس جوارحها الرعشة ، تترقب ببصر شاخص.

تلتفت خلفها كل ثانية بذلك الوجه الذابل ، كزهرة امتصت روحها الأقدار القاسية ، لترميها بين يدي الأرواح الظالمة...

ما بها الطرق لا تنتهي؟!.

ما بها خالية ، لا يُسمع سوى لعراك أنفاسها مع الرياح يهوي في أذنها بقوة.

كأنها لم تجري قط ، ولم تلتهم قدماها كل تلك المسافات ، ابتلع الظلام تلك المباني ، فلا تسمع غير نحيبها ، تترقبها الأضواء وقد خار نورها.

تشهق ، تلهث ، يُمزق صوت الأنفاس صدرها النحيف كخنجر حاد انقض على سارقة. ما لذي يحدث وسط تلك الظلمة؟ من الذي أوقفها؟.

هدوء ، هدوء قاتل أرعب ما حولها...

تلهث ، وتلهث.

بأنفاسها التي لا تتوقف ، سريعة كقطار انطلق بسرعة البرق ، لا تسمع إلا صفيره ، يخترق سكون ذلك الضباب ممزقا إياه. تستيقظ مرعوبة ، بالكاد تسترجع أنفاسها تلتفت يمينا وشمالا ، لا شيء.. وما الذي قد تجده في تلك

الغرفة الموحشة؟ غير سريرها الذي يأوي روحها إذا ما تئن ، وكرسيها الأنيس إذا ما نهشها الفراغ. تتنهد بصعوبة ، تصببت منها زخَّات العرق المتساقطة على خديها الناعمتين. ليستقر بعضها تحت ظل عينيها المعتم كسحابة حامل تتمخض. وأخرى تسارع ، متراقصة على أديم جسدها الناعم بفرحة غامرة... ارتدّت إلى النوم تترامى في حضن وسادتها مرة أخرى ، بعدما طاف بقلبها المرهف حزن قُحاف لا تصفه الكلمات ، تلتحف وجعها وتغط في سبات عميق ، راجية أن لا تصحو منه أبدا.

******

الجو ماطر و كئيب كعادته ، لا يذهب كآبته إلا شمس أمل تبدد حزنه ، وسط ذلك الشارع البارد كصحراء مقفرة ، قلما تجد أحدا يمشي تحت تلك السحب الثكلى.

وصل باكرا على ما يبدو ، طبعا فهو من أولئك الذين يقدسون الوقت ، ويحترمون المواعيد مهما كانت. وسط فوضى الأحاسيس المتضاربة ، يتفحص المكان بعينيه محاولا أن يخفف عن نفسه التي تأبى البقاء. دنا بعض الخطوات المكتئبة من الباب يطرقه ، بعد ما بللته الأمطار...

_ من هنا؟.

كان ذلك السائل البواب ، فيجيبه الزائر الغريب باللغة الفرنسية:

_ افتح لو سمحت، أنا الأستاذ « آيت هَنِّي » أمـ...

ولم يكمل ، حتى قطع صرير ذلك الباب المخيف حديثه ، ليخرج من خلفه رجل أربعيني شاحب ، أشيب هزيل. وعلامة الدهشة تلوح من وجهه ، يرميه بنظرات إنسان لم يفهم ما سمعه ، لا كلمة! نعم ، لا كلمة...

طبعا ، فقد كان إنسانا أمِّيا ، حرمته الحياة علما ، فوهبته عملا بسيطا يقتات منه ، فاكتفى بالإيماء برأسه أنه لم يفهم.

بزفير حاد ، يتحدث باللغة الأمازيغية:

_ إلى متى سأتحمل هاته الحال ، بحق الرب؟.

_ عفوا؟.

كانت هاته المرة كلمات أخرى ، ولكن ما به هل يستعرض نفسه على هذا المسكين؟ هكذا كان يدور في عقل ذلك الحارس البسيط..

_ أين مسكن الأساتذة؟.

بعدما أَحس بإحراج شديد لأنه لم يفهمه ، وبحسرة داخله لأنه لم يكن محظوظا كفاية في حياته ليتعلم. كظمها في قلبه. آه ، ما أقسى هذه الحياة ، وما أقسى من لا يفهمنا:

_ استدر يمينا وامشي بضع خطوات ، ثم انعطف يسارا. بعدها انزل مع الأدراج مباشرة...

كان يشير إليه بأصبعه ، وما إن أكمل حتى مرَّ من أمامه ذاهبا مباشرة. بلا شكر ، يمشي بكبرياء ، بتلك القامة الجذابة فارع الطول ، بقوامه الرشيق كأنه انفرد به دون غيره من الرجال. مما أشعل تصرفه اللاّ أخلاقي غضبا في قلب الحارس المسكين ، الذي لا يمت لشخص بمستواه العلمي العالي ، يرمقه بنظرات الاشمئزاز التي لم تقل عن نظراته هو بادئ الأمر.

يمشي ، يلتفت هنا وهناك.

بعدما أحس بفراغ ينهش عقله ، يأخذه مع تلك الطريق المرعب سكونها.

داخلا إلى ذلك المبنى الذي تآكلت جدرانه ، بذلك المصباح الذي يغمز له كل برهة ، يتراقص على أصوات الرياح وقطرات الماء التي تتسرب من السقف ، زادها جمالا وقع خطواته التي أنطقت الصمت:

_ كيف لي أن أتحمل هذا الوضع البائس؟ وكل هذا القرف؟ أخ ، ما العمل أكاد أنفجر؟

وهو على هذا الحال يكلم نفسه ، إذ بشيء يمر أمامه سريعا. أوب خاطفا أنفاسه ، ليجعله يقفز خوفا.

_ آه ، جرذان؟؟ إلا هذا ، كم أكرههم..

يومئ برأسه ممتعضا ، فإذا بخصلة من شعره الذهبي ، تترامى على جبينه العريض قد أثملتها نعومته ، فتحجب إحدى مقلتيه الفاتنة ، والأخرى تلمع كأنها كوكب درّي سقط في محيط لا حد له.

_ اللعنة على هكذا وضع ، سأموت هنا قريبا ، ولا أحد سيشعر بي. أين أنت يا أبي؟؟ لو لم تأتي بي الفاقة إلى هنا ، لما جئت.

بحزن يخنق فؤاده ، أسرها في نفسه وأكمل ممشاه إلى أن وصل إلى باب كبير ، دخل ليجد أمامه بابا متوسطا كتب فوقه مطعم ، وعلى يمينه درجات ويساره ، كتبت لافتات تشير لطابق الرجال والآخر للنسوة. فاتجه ناحية اليمين بخطى متثاقلة يحذوها الملل ، كانت أصوات الرجال تعلو من خلف الباب ، فتقدم بضع خطوات ليطرقه ، وإذا بأحدهم يفتحه قبل أن يلمسه... خرج منه وقد ابتسم له ، يحمل هاتفا ويتحدث فأشار له بتحية مرحبا بيده ومر ، كان واضحا أنه قدم قبله بثوان. حركت في نفسه تلك الابتسامة قليلا من الراحة لكنه لم يبال ، تنفس وتقدم ، وما إن دخل حتى رأى أسرة ثمانية ، أربعة على يمينه وأربع أخرى باليسار ، مصفوفة متباعدة بقليل تفصلهم طاولات صغيرة بكراسيها. وتقابله ثلاث غرف صغيرة وعلى جانبيها حمامين. فتح عينيه كأنه لم يتوقع هذا ، في حين أخذ ينظر إليه البعض ، والبعض غير مهتم. فهناك من كان منهمكا في ترتيب ملابسه قد وصل قبله بقليل من السفر ، وهناك الذي يغط في نوم عميق ، وكانت بجانب سرير فارغ بلا أغطية سرير مثله وعليه حقيبة ، فتذكر

ذلك الرجل الذي خرج ومضى مصدوما نحوه... كان يود لو يختار إحدى الغرف الثلاثة لكن سبقوه إليها فجلس على ذلك السرير ، يحدث نفسه بامتعاض:

_ هاته المدرسة لا تصلح حتى زريبة للحيوانات ، لا يزال العرب في العصور البدائية لا بل أسوأ.

ينظر إلى الأرضية بقرف ضاربا حقيبته بقوة على ذلك السرير ، يمعن النظر إليها بحزن يفكر بالرجوع إلى بيتهم ، لربما سيكون ذلك أفضل له ، لكنه يتذكر حبيبته السابقة فيعدل عن الفكرة. نظر إلى ساعته:

_ إنها السابعة إلا خمس دقائق ، كأننا لسنا في الصيف ، تعودنا على الأمطار المرحبة بالدخول المدرسي ، لكن هاته القرية النائية تثير الخوف. ينظر من خلف النافذة ، شارد مع الأبنية المتراصة ببعض ، وتلك الشوارع الضيقة القصيرة كثيرة التفرعات ، والمصابيح التي أحرقتها وحشة المكان ، إذ برجفة تقطع شروده ، اقشعر لها بدنه كله...

******

_ أسرعي فوالدكِ بانتظاركِ؟

نظرت إليها بنظرات ملئ بالأوجاع والآهات. عيون لا تدري هل تفرح لأنها وأخيرا ستخرج لترى النور بعد عطلة دامت طويلا ، كأنها عقود من الزمن قد مرّت عليها ، أم تحزن لأنها لن تتخلص من هذا السجن الذي حكم عليها بالعيش فيه مضطهدة.

وبينما هي عند الباب تهم بالمغادرة ، إذ تسمع صوتا شجيا متعبا يناديها بكل حنان:

_ « عروبة ».

التفتت ناحيتها بوجهها الملائكي ، تحدق إليها بعيونها اللوزية الواسعة. وذلك الفم كأنما حبة كرز استلقت على محياها باسمة ، تنام على خدها الأيمن المحمر شامة تأبى أن تفارق بشرتها البيضاء الناعمة الحريرية ، المشبعة بحمرة قد تناثرت على وجهها خالات بنية.

_ نعم يا أمي؟.

_ وفقكِ الله يا حبيبة قلبي.

وامتلأت عيناها دمعا ، هاربة بنفسها إلى مطبخها خشية أن تعكر يوم ابنتها ، التي تدحرجت على خديها دمعة هي الأخرى طاهرة كقلبها ، مغلقة الباب بصمت ، تكتسي بؤسها وشقائها ، في يومها الدراسي الجديد.

امتلأت باحة الثانوية بأصوات التلاميذ المشتاقين لبعض ، تتعالى ضحكاتهم ترتسم ابتساماتهم على تلك الوجوه المتنوعة المغمورة بالعواطف المختلفة.

وسرعان ما يرجع الصمت ليسود المكان ، صمت يرهب القلوب ، تبدأ فيه تراتيل التحية لهذا الوطن العزيز ، والأرض المقدسة ، يتراقص على ألحان حناجرهم العذبة علم الشهداء الخالدين.

رفع العلم أخيرا ، بعد أن شق طريقه نحو العلا شامخا ، واستقر في السماء أين موطنه ، انطلق الجميع نحو حجراتهم قد تزينت الأروقة بضوضائهم...

وفي أحد الحجرات كانت عروبة تراقب هاته وتلك ، تتفحص ملابسهن البهية الجديدة بطرف خفي مكسور الخاطر ، ثم تعيد النظر إلى ملابسها الرثة التي تكاد تنشق على جسدها الهزيل. فتتنهد حسرة ، مبحرة إلى خيالها الواسع ، لتلبس فيه كيف تشاء وتضحك متى أرادت. عالم ليس فيه من يضربها بلا سبب ، أو يوقظها من نومها بسطل من الماء. عالم لا يعرف فيه الحزن طريقا إليها ولا الشقاء ، تركض بخفة ذات القامة المربوعة في تلك الحدائق الخضراء ، لتتوقف عند شجرة ضخمة وارفة الأغصان ، تغمض عينيها وتطرب بأصوات العصافير وخرير الأنهار. لا صراخ ، لا بكاء ، ولا حتى..

_ عروبة ، عروبة...

تصحو مرعوبة على أصوات ضحكات زملائها في القسم ، تلتفت يمينا وشمالا وتنظر مباشرة أين تقف مدرستها تنظر إليها هي الأخرى:

_ ركزي معنا.

نظرت إلى الطاولة مرتبكة ، ورجعت لتحدث نفسها من جديد.

ضائعة أنا.

نحن البؤساء لم تكتب لنا السعادة ، لم؟

نكذب على أنفسنا ، نسكتها ببعض الكلمات كما نسكت طفلا صغيرا؛ لا تبكي فبابا سيشتري لك لعبة. وهو الذي لا يملك قوت يوم. نربت على قلوبنا بيد من حديد ، لماذا تتألم؟.

تلك الحروف على اللوحة في حضن الجدار معلقة ، تكاد تنطق مرارة حين تلمسها الأيدي القذرة...

تكتب عن الطهارة ، وهي متعطشة لها ، مرتمية في حضن القذارة. تنطقها الألسن بخبث وهي التي لم تعرف معنى الطيبة يوما.

******

_ تعالي وساعديني يا « عروبة »..

تتأمل في ذلك الكتاب ، تغوص في أعماقه إلى عالمها الهادئ الذي صنعته لنفسها حيث لن يلحقها أحد.. التحفت السماء سوادها من جديد ، ستبكي ، ستغرق الكون بآلامها ، لكن كالعادة سيهرب الجميع منها. يلبسون اللامبالاة

لأحزانك يا عزيزتي ، فتوقفي عن إثارة مشاعر الرأفة في قلوبهم لأنهم لن يسمعوا لأنينك ولو جأرتِ بصوتكِ الرعدي. فقلوبهم أصبحت من حجر ، وبرقك لم يعد يخيفهم.

وضعت الكتاب فوق الطاولة ، وهبت لتساعد أمها بخطوات متثاقلة كأن على كتفيها ينام أُحد لا يراه أَحد.

******

بأمازيغية معتقة معطرة بروح الحضارات القديمة ، تترنم تلك الصالة قد تمازجت مع أصوات الأساتذة المختلفة ألسنتهم ، والريح يضرب في زجاج النوافذ ويجري فوق السطح كأنما إنسان هارب ، أنفاسه تُسمع من مكان بعيد ، يقفز من بيت لبيت معانقا الجدران القديمة التي لم تجد أحدا يذكرها غيره ، فتفضفض له بكمد عن صرخات الوجع داخلها ، عن ضحكات السمر ، وعن حكايات الخداع التي لا تنتهي وصوت القرآن يتلى بجنح الليالي.عن التذمر ، عن التشاؤم عن الظلم وعن الأحلام المعلقة التي شقت جمادي دموع البؤساء يا ريح...

_ لقد سئمت الحال هنا يا « يوبا ».

ردّ عليه بضحكاته التي تعود عليها ، فلطالما كان يقول له أن ضحكته كتيس يبحث عن عنزته قد ضيعها في الجبال العالية.

_ البارحة ذهبت يا رجل.

_ ليست مضحكة.

باستخفاف أجابه ، بعد صمت قليل.

_ لماذا أنت صامت؟ تكلم أو سأنهي المكالمة...

_ تذكرت « دهية ».

كان الحزن يعتصره في كل مرة يذكر فيها تلك الفتاة.

_ ما الذي ذكرك بها؟ هي تعيش حياتها يا رجل ، فعش أنت حياتك ، أو جد...

ضحك من جديد ، ضحكاته المرعبة التي تقطع سهوه فترج جسده.

_أجد ماذا؟ ألم أقل لك أن لا تضحك هذه الضحكة المرعبة ، إنك تفزعني بها يا غبي.

وقد قطب حاجبيه الممددين على حرير محياه ، يتأفف بغضب.

_ فتاة عربية ، سوف تسعدك صدقني...

قهقه وقهقه دون انقطاع ، مما أثار انزعاجه فاحمر غضبا؛

_ أأنت مجنون؟ لو تبقى الفتاة العربية آخر امرأة في الكون لن أنظر إليها.

_ أمزح معك يا مغفل ، أعلم أنك لا تطيق العرب لهذا أستلذ باستفزازك.

أمال فمه المنتفخ كأنه حبة فراولة ، ممتعضا بعد أن عدل جلسته وقام متجها نحو الكرسي.

_ سأنهي المكالمة ، علي تحضير درس الغد والوقت قد تأخر.

_ حسنا يا صهر العرب.

وأنهى الاتصال بسرعة ضاحكا ضحكات كانت كبنزين أشعلت نارا مستعرة ، لو خرجت للعالم لأحرقته بمن فيه. ولم يترك سبا أو شتيمة إلا ونعته بها.

وأخيرا تنفس الصعداء وتنهد كمن خنقه أحد ، يلتفت الجميع إليه ، لكنه لم يكن يضع اعتبارا لأحد ، فالحقد الدفين اتجاه العرب لم يزل يسري في عروقه كما الدماء. هذا الحقد الذي ورثه « أمازيغ » عن أبيه ، فقد كان رجلا حاقدا ناقما على كل ما هو عربي ، كذلك صار إرثا تحمله الأجيال ، عن الأسباب؟ فتتعدد. إلا أن بعضها أكاذيب منمقة لتشعل نار الفتنة لا أكثر ، وكم هي سهلة الشائعات في زمن التكنولوجيا.

******

التهمت عيونهن الجائعة كل جزء من جسده ، يرمقنه بنظرات الإعجاب ، تضربهن أمواج عيونه العاتية ، فتزلزل دقات قلوبهن أرضية الرواق ، كأنما ملك

وسط حاشيته. كان يبدوا بعمرهم ، شاب في الأربع والعشرين من العمر فتي الملامح والجسد.

دخل لذلك القسم ولم يكن بذلك السوء ، الذي وجد عليه تلك الإقامة التي كل ما يتذكرها يشعر بالغثيان. يمحصه بعينيه الزرقاوتين ، كل هنيئة يلسعه البرد تلذذا ، وغير ذراعيه يحتضن بهما جسده لم يجد.

_ أنت أستاذ الإنجليزية الجديد؟.

بتلذذ تكلمت ، بعيون خبث قد ألقت نظراتها طعما تنوي اصطياد فريستها بفحيحها القاتل. لكن ، هيهات أن تقدر ، فهاته المرة الفريسة أقوى من أن تقدر عليها أنيابها البارزة.

بدأت الأصوات تتعالى من حوله ، وهو في شموخ يُحضر نفسه غير آبه بأحد ، ودّ لو أن بينه وبينهم جبلا عظيما... يتأفف بين الفينة والأخرى ، تارة يعزم على أن يشتت تلك الأوراق عليهم ويغادر ، وتارة يخفف عن نفسه بأنه لم يبقى الكثير فتحمل. عبثا يحاول فقلبه أصم ، وعقله سيارة بلا فرامل فقدت السيطرة ، وبفرنسية ممزوجة بلحن أمازيغي خفيف يطغى عليها ، فيروضها بلسانه ، ليلقي سحره:

_ لن تكون حصة تعارف كما اعتدنا ، بل حصة لامتحان مستوياتكم...

وأكمل مهمهما بينه وبين نفسه:

هذا ما ينقصني غير أن أتعرف بكم ، كأننا لا نعرفكم قد أشربتمونا الجليد في عز البرد.

همس يقطع حديثه المدجج بالكراهية مع نفسه الثائرة ، فينظر إليهم نظرة تنذرهم بعقاب عسير إن لم يوقفوا نعيقهم ، الذي يخترق سمعه فيوقظ أعصابه.

وما هي إلا بضع ثوان معدودات حتى نطق أحد التلاميذ:

_ هاته حصة انجليزية وليست فرنسية ، يبدو أنك أخطأت في القسم أيها الأستاذ...

_ لم أخطئ أنا أكون أستاذكم الجديد ، وعليكم التزام الصمت ، لنبدأ.

الجميع يحدق به منتبهين ، شدت نظراتهم الرحال نحوه ، كل واحد يهمس مع شريكه في الطاولة بحديث لا يُسمع:

_ مجددا يتحدث بالفرنسية!.

_ لا تقل لي أنه قبائلي؟!.

_هذا واضح ، فأغلبهم تعودوا الحديث بالفرنسية.

وضع قلمه مثقل الكاهل ، وسحب حاسوبه ووضعه على مكتبه.

_ ليس الجميع يتحدث الفرنسية ، عليك أن تشرح لنا بالعربية.

_ هكذا ستبقون في الركب الأخير.

ورجع لعادته بالهمهمة بجمل أمازيغية.

_ستبقون في الركب الأخير ، وهذا مكانكم الصحيح ترعون الغنم...

تنهد مكملا:

_ سأشرح بالفرنسية لأنكم درستموها ثماني سنوات ، كيف لا تفهمونها وأنتم في المستوى الثانوي؟!! هذا غير معقول.

ردت عليه فتاة تجيد الفرنسية قليلا.

_ ليس الخلل فيهم ، اسأل أولئك الذين لا يقومون بعملهم ، خاصة في القرى النائية ، يعملون معهم بجفاف ، كأنما ينفقونها من جيوبهم لا من ألسنتهم...

_ وأنتِ من لقنكِ إياها؟.

_ أبي كان مديرا.

ابتسم ابتسامة لردها الذي لم يكن يتوقعه ، و طأطأ رأسه يفتش بعينيه عن مسوداته التي حضر فيها درسه.

_ الشرح باللغة العربية لن ينفعكم صدقوني ، ولن تتعلموا بهاته الطريقة. عليكم التطوير من مستواكم العلمي فأنتم بحاجة إليها عندما تدخلون الجامعة ، كما تعلمون فالكل أصبح يتعامل معها في عمله... اسمعوني إذا بقيتم تغلقون آذانكم على تعلم اللغات ، فالخاسر الأكبر هو أنتم. ستسألون كيف؟ حين تشاهدون في التلفاز حوارا وأنتم صمٌ بكمٌ ، وإذا حسبتم أن بحديثكم بغير لغتكم أمر مهين فهذا هو التخلف الحقيقي ، اللغة الأم ستبقى بقدرها ولن ينقص منها شيء...

سكت برهة ، وتابع حديثه:

_ هاته نصيحتي لكم وأنتم أحرار ، لكنني لن أشرح بها ، وسأكتفي بالإشارة والرسم في حال لم تفهموا المعنى.

نطق أحد التلاميذ؛

_ علِّمنا إياها أنت ، أنا أرغب في التحدث بها وبجميع اللغات ، طالما هي ستفيدني...

_ حسنا..

نظر إليه وقد وافقه الجميع بخجل ، وسكت الجميع ، بعد أن حل الهدوء في القسم مرة أخرى ، لا تسمع إلا الهمس ، فقد كان كلامه محفزا لهم ، وتصرفاتهم لاقت مكانا في داخله ، فقد كان يشعر بالفرح حين يقوم بعمله ويُجِّد فيه.

******

غريبة هاته الحياة ، من أعطاه الله اشتكى ، ومن منع عنه اشتكى. لا أحد يرضى بما قسمه له ربه ، يركضون خلف اللاشيء. ما بال هذه الجدران صامتة ، لا تحدثني ، هيا. انطقي ، لا تصمتي.

فالصمت يعذبني ، يـأخذني إلى وساوسي ، هواجسي وآلامي. يأخذني إلى..

صوت من هذا؟ إنه بعيد جدا. بدأ يدنو من سمعها وهي لا تزال تصارع ذاتها ، كلما يقترب منها أكثر يشيخ أكثر..

_ ها هو مشروب النعناع الساخن ، اشربيه كله فسرعان ما سيمتص وجعكِ.

_ وماذا عن وجع قلبي يا أمي؟ هل سيسكن النعناع آلامه؟.

تومئ برأسها كمن عقد لسانه ببالغ الحزن والأسى ، يعتصر الكمد دموعها بصعوبة. عجوز أربعينية بالكاد تتحرك ، كبرتها الهموم والأيام القاسية ، وجف بئر دموعها. بصوتها الحزين الهرم ترد عليها:

_ الذي خلقنا لن يضيعنا. والذي عصمكِ من الموت في ظلمات بطني ، سيعصمكِ من الوجع في ظلمات هاته الدنيا. شدِّي به يا قلبي.

وضعت يدها على كتفها ، تواسيها بنظرات ملؤها الحسرة ، وهي التي تود لو تجد من يواسيها ، تربت عليها بيدين ثقيلتين ، مغادرة بخطوات يائسة:

_ أما حان الأوان لنقرر؟.

التفتت إليها، مُصوبة نظرها إلى مشروب النعناع.

_ اشربيه كله واستلقي لترتاحي.

تجاهل ، تجاهل.

يقتلني الصمت أنا ، يعذبني...

أفر من الأقدار لتلاقيني الأقدار ، أبحث عن حل وسط هاته الحلول المتقطعة فأخرج بلا حل ، تمزقني الذاكرة. لا ينتشل العذاب غير العذاب..

ظلم ، كمد. .أتحطم كما الزجاج المتناثر ، ألا تسمعون أصوات حطامي؟ لماذا؟ هل كل من في هذا العالم أصبح أصما اليوم! أصرخ فتسمعني الجدران ، وتئن معي الشوارع ، و يرى دمعي الريح العاتي إن مر ولا تراني عيون العالم؟.

أصرخ ، وأصرخ.

لماذا أنا؟ لماذا اختارني الشقاء من بين الكل ، رفيقة لشقائه؟

ليرميني بين أحضان هاته الحياة البائسة...بئس المستقر ، بئسه.

******

يوم كئيب ، ألا تكتسي هاته القرية المعدومة إلا البرد؟ جدران مقطعة ، غرف باردة ، تلاميذ شرود ، كأنني في جنازة وكل الحضور شيوخ ، ينتظرون دورهم... أخْ ، أيها الرب انتشلني من هذا القرف ، شاخ قلبي سريعا.

إذ بصوت يقطع طوفان كلماته ، غير أنه تجاوز ولم يأبه له..

_ صعب يا « فتون » صعب. سيشيب الشعر قبل أن يصل القلب.

_ صعب كامتحان الفيزياء يعني؟.

رمقتها صديقتها بنظرات استغراب ، تضحك وهي تمسكها من ذراعها بكل ثقة:

_ ليس هناك ما يصعب علي ، سأجُّره خلفي وسترين.

نظرت إليه من بعيد ، يمشي بكبرياء ، تتوعده عيناها بالنصر القريب ، وكسر ذلك الشموخ...

اخترق ذلك المكان ، صوت. ينبعث من مكان آخر في تلك القرية ، كان واقفا عند الباب ، بعد أن أغلقه بقوة أيقظت سكون جدرانه ، وأيقظت أحدهم.

_ ماذا حدث؟؟.

قابلته أم عروبة تسأله ، لكنه جرى نحو الغرفة ، بوقع أقدامه التي تقع على الأرض كدويّ القنابل. ركل الباب بقدمه فإذا بها تقفز من سريرها مرعوبة ، قد غطت بنيته الضخمة الباب فأظلمت الغرفة ، كاد يقتلها بنظراته التي تحمل خبرا منذرا بالشر... ازدادت ضربات قلبها ، تتسارع أنفاسها ، قد امتص الخوف بياضها فصيره إلى صفرة. وزادها الوجع ضعفا فما استقوت على النهوض:

_ هيا للطبيب.

تحاول أن تنهض ، فيسحبها الفراش إليه سحبا تنهش الحمى عظامها النحيلة. تعودت المسكينة على هذا الوضع فهو يتكرر دائما ، ففي كل مرة يأتي فيها والدها منتفض البدن محمر العينين ، إلا ومصيبة جديدة يحملها ليلبسها إياها ، لكن لا يفلح القلب الظالم أبدا.. غير أنها ومهما صدقت ، ستنال وافر الذل والضرب جراء ذلك. يهز شاربيه الكثيفين للشر دائما...

غربت الشمس ، وتجهمت السماء. طرق على الباب بقوة ، فهرعت أمها لتفتح ، أمسكها من ذراعها دون رحمة ، ودفعها حتى كادت تسقط ، لو لم تدركها يد أمها الناعمة:

لماذا تعاملها هكذا ألا ترى مرضها البادي على محياها؟.

_اخرسي ، اذهبي إلى غرفتكِ.

تلتقي عيناها بعيني أمها والحزن يعصرهما ، صمت آذانها الويلات. يقف خلفها بوجهه الأسود الفاحم...

ماذا قال الطبيب؟.

صمتت وأكملت نحو غرفتها تذرف دموعها...

******

الجحيم تحت أقدامه

_« عقيل » ، احمل هذا إلى المستودع ، وبعدها اذهـــ.. أسرع يا حيوان فأنت تؤخرني ، وأوصل الصندوق إلى جارنا أحمد.

لم يدر ما يفعل غير أن يومئ له برأسه ، مرتجفا لم يتوانى لحظة عن خدمته. لا يرضيه العجب ولو صنع له بيتا من ذهب. وهكذا تزحف أيام « عقيل » ببطء ، ببطء. على صراخ أبيه المتواصل يصحو ، وينام ، هذا الصراخ الذي أصبح يدق في رأسه بقوة ويوتره. وعليه قضى « عقيل » ثمانية عشرة سنة من عمره ، يتحمله بكل ما آتاه الله من صبر. هذا الطالب المجتهد والمثابر ، الذي يرى أن التعلم وحده الوسيلة التي ستنقذه من تمرد والده وجهله ، ولكن...

******

ولج أستاذ الفيزياء الذي لا يتغيب أبدا ، وها هو ذا يشرح المفاعلات والتحولات ، بشغف كأنه يغازل محبوبته هائما في بحرها. وكلٌ في بحره ، يغوص في خياله اللاّ متناهي. وهناك من سبقهم إليه بأرجل حافية مسرعة ، على أديم خيال ملائكي ، تلهو وتلعب ، تغني وتتكلم بلا قيود ، بلا حواجز.

عابثة بنسمات الهواء العليل ، تتحدث لنفسها عما يخالجها ، تعاتبها ، تمازحها ، وتشتكي إليها ظلم البشر سود الأكباد.

مرت الساعات بسرعة البرق ، تخطف أعمارنا منا. دق الجرس ، وحان وقت الرجوع. إنها الخامسة وقد حان وقت العودة إلى تلك السجون ، فهكذا يراها البعض. والبعض منهم يرونها الجنة حيث الراحة والتسلية بعيدا عن جو العلم والتعب ، وبعضهم قد ارتد خاويا.

الحرارة تكاد تذيب جلودهم ، وصار الجو مزاجيا كأنما نقل البشر إليه عدوى المزاجية. في تلك الأثناء والدها قد تأخر عن المجيء ، وكما تعودت الشوارع باحتضان الكثير من الشباب كلٌ جاء ليغازل ، عسى يلتقون بفتاة الأحلام ، أو مغفلة للحظات عابرة... هناك عند باب الثانوية واقفة مرتبكة ، يتصبب منها العرق من شدة توترها والطقس ، ترتعد مفاصلها ، قد اصفر وجهها هلعا.

_ ماذا سأعمل؟.

وانزوت إلى ركن تفر إليه منهم ، حتى مجيئه. تلتفت يمينا وشمالا ، لا أحد غير تلك السيارات التي تأتي وتذهب كامرأة جاءها المخاض ، وبنايات قديمة هي الأخرى تسترق النظر لا تقوى على الكلام ، وتلك الشجرة العالية تحاول أن تحتكر الهواء لها وحدها ، تتراقص فوقها الطيور تشدو ، ترسل لها نظرات سلام تكاد تقفز عيناها إليهم لتشاركهم فرحتهم ، تتمنى لو أنها تحلق معهم. يا

حسرتاه... وهي على ذلك الحال إذ يمر بجانبها طيف رحلت عيناها تتبعه سارقا إحساس الوعي منها ، وتلاشى معه السكون. حسبته بادئ الأمر نورا اخترق ظلمتها فأنارها ، لكنها...

صوت قوي مزق ذلك النور كرعد مزق ظلمة الليل. صوته كان مألوفا على أذنها ، كان صوت والدها يرعد بغضب ، كأنه صدمات كهربائية تضرب على أعصابها بقوة فتوقظها رغما عنها...

_ إلى من تنظرين يا كلبة؟ وصفعها على وجهها صفعة ، وجهت جميع الأبصار ناحيتها:

_ لا ، لا...

وبدأت تهرب منها الكلمات ، فهكذا هي حال « عروبة » وبدأت تقسم أن لم تنظر لشيء ، لأنها فعلا لم تنظر إنما هو الإحساس بالأمان لشيء ما جذبها ، قوة ضربت في قلبها فاستقرت. وبقيت تسمع الشتائم تتلو الشتائم ، وابل من الكلام الجارح ، كأنصال حادة تتنزل بقلبها. لم تعد تحس بألمها فقد ألفتها ، وماتت بداخلها تلك الطفلة التي تبكيها نسمة هواء... ستكون ليلة سوداء ، حالكة كليال الشتاء الباردة عليها.

_ لا تضربها يا « حازم » ، ستقتلها يوما ما...

_ ابتعدي سأقتلع عينيها من مكانهما ، ولن أقصر. صارت بلا حياء تنظر للرجال وترفع رأسها.

حائرة العين ، هاربة العقل ، مكسورة القلب. يجلدها بقوة ، وهي بجَلَد كأنما تقول له اجلد أكثر لعل ذلك يروي روحك الجائعة ، وفكرك المتعطش للدماء ، اضرب ، اضرب.

لعل هذا يريحك ، ما يزيدك غير شقاء ، لا يرجو منك قلبي رحمة فلم يزدك بكائي إلا قوة ، ولم يزد كارتجافي إلا غطرسة ووحشية..

أنا ، نعم أنا. أقوى منك..

لن تكسرني بضع جلدات. نحن هم التائهون ، البؤساء الذين ليس لهم من هذا العالم إلا الشقاء ، وغير الشقاء لن يكون ما يثلج القلب سرورا.

شقاء لم يبقي مني ولم يذر، غير الحسرة..

تحاول النهوض بعد أن شوه جلدها الناعم الهزيل ، وغرق في دماءها الطاهرة.

بتلك العيون اللوزية اللتان تمطران ألما... تحاول ، وتحاول ، فلم تجد إلا أن تنام على الأرض ، لتحتضنها. تأوي إليها وتبكي عليها فتسمعها.

فعلا الأرض تدق ، إنني أسمع دقات قلبها تواسيني... عبثا تواسي قلبي.

_ أحتاج لغطاء ، أحتاج لغطـــ...

فتحت عينيها بصعوبة ، تنظر...

إنها أمها ، ترمقها بنظرات الخجل لأنها لم تستطع إنقاذها من مخالبه ، التي مزقت طفولتها وشبابها. تنحدر من مقلتيها الصغيرتين دمعة ، فيرتجف اللحاف من بين يديها.. تكلمها أمها غير قادرة على الرد:

_ إذا وجدتي يوما منفذا يا بنيتي ، فانفذي بما تبق لك من براءة. من بعد اليوم تملكين القرار ، فتقدمي..

أغمضت عينيها وهي تبكي ، تخنقها الذكريات ، تقهر ضعفها الذي لم تستطع التخلص منه... فليس لها سوى أن تشهق بصمت ، تشهق.

وتقتل براءتها باسم الصبر...

خلف ذلك الجدار اتكأت أمها تبكي ، وهل غير البكاء تملك. ولا يملك الضعفاء غير البكاء فالبكاء...

******

_ « عقيل » ، أطفئ النور لست أنت من يدفع فاتورة الكهرباء ، { إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين } ، هاه...

طأطأ رأسه ، فتقدم إليه كأنه حية يسعى ، وربت خلف رقبته بقوة:

_ لا تريدني أن أضربك ، صح؟.

أشار إليه خائفا ، بأن لا. فرد عليه:

_ إذن اسمع كلامي ولا تهيج أعصابي..

وذهب يتمتم في نفسه: لا... ما الذي يعلمونكم فيه بالمدرسة !!!.

أحيانا ، قد تعقد أفكارك النيرة كلمة بائسة من شخص بائس ، تقف كعقبة ، كغصة في حلقك فتخنقك ، كجبل على أكتافك... هل أدلكم على التجارة الخاسرة؟ أن تبيع أفكارك الراقية وإبداعك في سوق السفهاء...

أطعم جاهلا كتابا وسيطعمك فردة حذائه. لا تنتظر أن يدعمك أحد ، سيشيب شعرك وتسقط مفاصلك ويمتص دماغك عينيك من كثرة ما ستنتظر...

العصافير تغدوا باكرا إلى الأرض الواسعة لتطعم صغارها حنانا ، والبشر يغدوا ليطعموا صغارهم ألما. بدأت الناس تنتشر كوباء قاتل ولن يغادر اليوم إلا سقما على الأبرياء فيه.

وفي ركن من أركان هذه المدينة الجافة ، اجتمع ثلاث صبية يرشقون الحجارة باتجاه شيء ما ، يضحكون بأصواتهم البريئة ، لا يدرون ما أقبح ذنبهم وما أطهر قلبهم. وهو الأطهر بينهم ، ولأنه طاهر اختارته الحياة ليكون أحد ضحايا القدر. يلقبونه بالمجنون ويجرون ، يجرون في شارع قد يحتضنهم يوما أو يكونون من المحظوظين. نائم على ذلك الرصيف ، ليس باردا فلا تلتحفوا بذلك الشعور القاسي ، على الأقل لن يكون هناك شرير في حياته. تتقدم ناحيته تلك الحسناء الجميلة ، ترمقه بنظرات الأسى قد بث فيها حزنا عميقا...

يقولون أن المجانين يفهمون بعضهم ، فلم قد تفهمه؟ ربما رابط ما يجمعهم ، من يدري:

_ أسرعي خطواتكِ وإلا كسرت ساقيكِ فأجعلكِ سجينة سريركِ.

بنبرة تهديد ، تكاد تجرفها نظراته التي لا ترحم.

******

« هل علينا التحمل أكثر؟ هل وجب علينا أن نبتلع هاته الأذية بفم مربوط... أما آن الأوان لهذا الفم أن تُحل أربطته؟.

نصنع من آهاتنا سفينة لتعبر بنا إلى المجهول ، إلى اللامتناهي الحدود.

صراخ ، صراخ.

أنين يتمخض في ذلك الركن ، كلمات متناثرة هنا وهناك... من ذاك؟

من الذي شق ظلمتي بنوره فحملني من موج الأسى إلى بر السلام؟ من يناديني!!!

لا أحد ، لا أريد أن أسمع ، لا أريد أن أبكي ، ارحلوا... ارحلوا أيتها الأرواح الشريرة.

الأرض تدور ، تدور فلا تتوقف؟.

أنفاس من هذا ، أنها تزعجني ، تتفجر في أذني بقوة القنابل ، أين المخرج أين؟

أجري في تلك الطريق التي لا تنتهي:

جدران؟ جدران تئن؟ كل من حولي يئن؟.

تلهث، تلهث ، بلا توقف تلهث.. ويديها على أذنيها تأبى السماع ، تومئ برأسها. فتخر جاثية على ركبتيها... بأنفاسها المتسرعة ، لا تقوى على النطق.

أما آن الأوان لهذه اللعنة أن تفك؟!.

قلبي يؤلمني ، ارحمي وارحلي ، فلترحلي... آه. ».

تلتفت يمينا وشمالا ، عيون تبرق في كل مكان ، أحدهم يقف بعيدا ، تحاول أن تركض لكن جسدها مقيد ، تتساءل ما لذي حدث؟ بعيونها العسلية الخجولة المرعوبة... كمن رأت وحشا. لم تعرف ذلك الشخص ، أحدهم قادم.

وحش ، وحش... لا ، ليس وحشا.

شفاه تتحرك ببطء قاتل. لكن ، لماذا لا أسمع حديثا لها؟ عيونهم الساخرة تكاد تبلعني ، تبلعني؟ نعم ، تبلعني ثورة تلك النظرات؟.

بدأ جسدها يرتخي ، بدأت تصحو على وقع حروفه أخيرا:

_ « عروبة » ، « عروبة »...

ترفع رأسها فتشهق عيناها ، ليرتفع حاجبيها المبللين بعرقها المتساقط على كل بقعة من وجهها الحريري ، ترفع يديها محاولة إخفاء تلك الكدمات على وجهها من آثار الضرب ، لكن عبثا تحاول فأنينهم فضحها...

_ لازال والدكِ يضربكِ؟.طأطأت رأسها تبحث عن جملة ترد بها على أستاذتها. لا جدوى ، فكل الجمل تفر عندما يتعلق الأمر بوالدها.

_ اذهبي واغسلي وجهكِ ، هيا صغيرتي.

بالكاد تتحرك ، وحتى لا يظهر ضعفها ، تتظاهر بالقوة. تمشي بخطى متثاقلة ، كئيبة ، ترفع رأسها على حين غفلة منها. لتراه ، تضيق عينيها إليها لتركز ، مألوف؟.

أين رأيته؟ بدأ ينقشع ذلك الضباب على عينيها لترى ملامح وجهه ، لتبدأ دقات القلب بالضرب على صدرها ، فيتراقص جسمها مرتعدا على إيقاع ضرباته.

اهدأ ، اهدؤوا. لكن أنفاسها لا تتوقف عن الجري نحوه...

فتجري مسرعة كالمجنون الذي لا يعي ماذا يفعل ، فتصدمه بكتفها وتغادر. تركته يحاول أن يكبت ذلك الشعور المجهول الذي لا يفسر. لا أحد يمنع نفسه وقلبه من الوقوع إذا ما رأى وجهها الساحر. تركته ، يعارك نفسه التي تضاربت مشاعرها داخله لتفجر الحمرة على وجهه الأبيض البهي منتعلا القرف الذي فضحه في تقاطيع وجهه سرعان ما غيم ، يتمتم بالأمازيغية..

اللقـــاء

_ إنه قادم...

_ ما بال تلكن النسوة!!!.

تنظر من خلف النافذة بعيون شاردة. بأذنٍ تشاغب هنا وهناك ، عسى تخطف خبرا مثيرا للاهتمام لها ، فيقتل ذاك الاكتئاب... وهمت بالمغادرة حاملة وعيها لعالمها ، تحاول إيجاد حل يخرجها من الدوامة التي تعيش فيها لحياة أفضل ، هادئة خالية من الظلم ، الاضطهاد والكراهية. بعيدا عن أجساد استغلظت أنيابها تغرسها في القلوب الطاهرة ، النقية كماء عذب.

حل سكون رهيب داخل الحجرة ، انقطع معه حبل خيالها ، لتستفيق...

_ ماذا يحدث؟؟.

التفتت ، وفتحت عينيها تتبعه بهما حتى وصل لمكتبه...

****

« ... باردة هاته الغرفة كما هي حظوظ بعض البشر ، واقفة عند باب غرفتها ، وإذا بشلال من الدموع ينهمر على خديها. ترمي بحقيبتها على سريرها وترتمي بين أحضان تلك الوسادة تشهق داخلها وتفرغ كل ألم فيها ، غير تلك الوسادة

لم تجد « عروبة » لترمي بأثقالها عليها... أوَ تفهم الوسائد آلام البشر؟ نعم وتمسح على دمعهم أيضا...

قعدت بعد موجة أنين ، تخاطب نفسها.

_ لماذا عاملني بتلك الطريقة؟ ماذا فعلت له؟ هو أيضا!!!.

هذا الغريب الذي جاء ليؤذيني هو الآخر ، ما قصتهم معي؟.

آه... يا رب السماوات انتشلني من عذابي.

لماذا قللت من شأني قبل أن تتعمق في داخلي ، عاملتني كعدو ، وجعلتني سخرية القسم ، حتى أنت أيها الغريب؟!.

تمسح بيديها دموعها وقد رمتها الذاكرة إلى ما حدث معها في تلك الحجرة فتغطي عينيها بقوة بيديها ، ترتجف حسرة...

« ... كان يفتش بين الأوراق عن شيء ما والفتيات مأسورات بعينيه اللائي فتن بجمالها ، مما أجج نيران الغيرة في قلوب الفتية. وهو الغير مبال بأحد.

بدأ يستدعي الحاضرين ، هذه ترد بحماس وتلك بهدوء وذلك بملل حتى توقف فجأة. توقف ورفع بصره يفتش عن أحدهم لم يره من قبل في فصله ، متغير المحيا ، قطبٌ كمن يعتصر جسده:

_ « شامخ ».

رفعت يديها جالسة في آخر الصف ، لكنه لم يراها فناداها مجددا بصوت عال كأنما بدا الغضب عليه الألم ، ولم تكن المرة الأولى التي ينادي في الحاضرين بلقبها لكنه لا يجدها...

_ حاضرة.

كانت تملك صوتا ناعما مثيرا للانتباه كلما نطقت ، فجأة توقف عليه وقد أصابته رعشة خفيفة سرت في جسده كله ، التفت إليها يرمقها بنظرات ملؤها الكراهية ، كمدفع يتجهز للدّوي ، يطلق زفيرا طويلا متنهدا ، بعدما تذكرها ، هي نفسها التي رآها بالأمس وقبله:

_ ناديتكِ لماذا لا تجيبين أين عقلكِ؟.

_ لقد رفعت يدي.

ترفعين يدك ، هل أعرفكِ؟ عليك أن تتكلمي يكفيني أن أسمعك فليس لي فضول لأراك...

ارتفعت ضحكات التلاميذ الساخرة ، فضرب الطاولة حتى صمتوا. ناظرا إليهم بغضب شديد:

_ تغيبتِ مرتين ، اخرجي لتحضري رخصة دخول..

وانكب على أوراقه يبحث عن شيء ما ، حين تقدمت بخطواتها محطمة الفؤاد ، تستذكر كلامه معها بذلك الأسلوب ، وردة فعل التلاميذ تلك سببت لها إحراجا شديدا ، حاولت أن تنطق لكن الكلمات هربت منها. دائما كان بينها

وبين لسانها عداوة ، فتخونها العبارات عندما تحتاجها ، ولا تفلح إلا في البكاء... ما إن همّت بالنهوض ومشت خطوتين:

_ ماذا؟ أنتِ أيضا لا تفهمين الفرنسية؟ أمة جاهلة...

تلك الكلمة الأخيرة استفزتها ، ونزلت على قلبها كنصل حاد ، مما فك عقدة لسانها:

_ هذه الأمة الجاهلة علمت من تتباهى بلغتهم درسا في الصمود ، وأطعمت معنى الكرامة فردا ، فردا. حين تعرى الكثيرين منها... وقبل أن تكون اللغة سلاحا ، كانت سواعدهم مدافع.

هدوء ، هدوء.

هل هو الكارثة بعد السكون...

كانت عيناه مشدودتان نحوها قد فتح ثغره استغرابا ، تنفس الصعداء ، وقد أطلق ضحكة أسكنت السكون. تقدمت ناحية الباب لتغادر حين استوقفها ، وسدد الكل أبصارهم إليها ، تلجمهم الحيرة يتساءلون عن جرأتها ولسانها الطلق في اللغة الفرنسية:

_ أهذه المغفلة المعتوهة تتقن الفرنسية؟؟.

رد عليها يشوبه فخر ويغلبه كبرياؤه أن يظهر ذلك ، يعضض على الحروف عض الأسود على فريستها:

_ توقفي...

استدارت إليه.

_ لا تعودي حتى تحضري رخصة للحضور.

أكملت مسيرها وفي قلبها ألم كبير ، تنخر عقلها آخر كلماته نخرا.. ».

_ لا تزالين نائمة أيتها الغبية؟ استيقظي.

يزيح عنها اللحاف بقوة ، حتى قفزت مرعوبة بذلك الشعر الأسود الطويل ، يتموج على وجهها ، يترامى على كتفيها ، يرمقها بنظراته القاسية:

_ ما هذا الشعر المتدلي؟ سأقصه لكِ يوما ما.

وما هي إلا لحظات ، حتى خرجوا من المنزل تمشي ورائه سارحة ، تتنزل عليها كلمات « أمازيغ » فتنخر عقلها من جديد ، تحدث نفسها:

إذن ، علي أن أحضر رخصة تربية. لو كنت محظوظة قليلا ما التقيت بشخص سيء مثله ، الكل يحترمني ما عداه...

_أسرعي في مشيتكِ.

تتضارب قدماها ببعض ، من شدة الرعب. لا تقوى على التفكير إذا ما سمعت صوت والدها ، فهو يذهب عقلها ووعيها إذا ما حضر أو نطق ، أو حتى نظر...

******

أوامر ، صراخ ، ضرب ، هذا ما يفلح فيه الآباء فقط؟ ألا يفلحون في حياكة الكلمات العذبة التي تدفئ القلب؟ يلفوننا بالحنان لنقوى على قسوة الأيام ، لا يكونون هم القساة في الأيام. ليصبحوا بامتياز أقسى من الحجارة...

_ « عقيل » راقب براميل المياه إذا امتلأت ، ثم أطفئ العداد...

_ لكنني سأتأخر عن الدراسة.

بصوت خافت ملؤه الحزن والخوف من العقاب رد عليه.

_ طاعة أوامري قبل تلك الثانوية التي تعبدها.

طأطأ رأسه كمدا وحسرة على حياته ، ولم يجد بدا غير الانصياع له والخنوع لجبروته...

مرّ اليوم سريعا ، يمر بملل كعادته ، يجر الخيبة جرا ، وبدأت المواعيد الغرامية بتوقيت الخامسة عصرا تدق أجراسها.

تنتظر وتنتظر ، تلتفت يمينا وشمالا.

لم تره من بين الشباب كما أملت.. لا أصوات تعلوا غير الموسيقى التي صمت الآذان ، تنبعث من السيارات جيئة وروحا.

مرت ساعة ونصف ، وقد بدأت الرعشة تسري إلى كل قطر من جسدها تهزه هزا ، وجلة:

_ لماذا لم يأتي ، الجميع ينظر إلي تكاد عيونهم الجائعة تلتهمني ، باستحقار بعضهم ينظرون.

ماذا لو ذهبت. لا ، سيقتلني لأني لم أنتظره... ضائعة أنا أين الحل؟؟.

وهي شاردة تبحث عن إجابة محتارة ، إذ بأستاذ الإنجليزية يمر بجوارها ، يحمل بيده اليمنى كيسا ، والأخرى يدسها في جيبه. كان أنيقا بقميص أزرق سماوي بلون عيونه ، وسروال أزرق قاتم ، كانت أول مرة تراه فيها بلا مئزره الأبيض ، خفضت عينيها يلجمها الخجل وقد انفجر وجهها بالحمرة ، تباغت سمعها كلمات بالفرنسية متمايلة فتحدث فيها زلزالا قويا ، يرى الجميع يغازلها ويثني على جمالها كلما مروا عليها ، مما أزعجه الأمر:

_ لا يبدو عليكِ هذا...

رفعت عينيها تحدق في عينيه الواسعتين كبحر لا حد له ، قطب الحاجبين كعادته. هاربا من عيونها ، متحيرة ما لذي يقصده:

_ في الوهلة الأولى تبدين محترمة ولـــ...

_ انتظر ، انتظر. ما لذي تقصده؟؟.

_ لا داعي للنفاق. استمتعي مع صاحبك ، ولا داعي لتمثيل دور الخجولة البريئة لأن هذا الأمر يزعجني.

_ آه ، ها.. ماذا؟؟.

تسمرت مكانها وسقطت دمعة من عينها مرتعدة ، وفرت من أمامه تركض تكاد تسقط.

******

صدقا إن البشر ألسنتهم مواقد من نار ، وقودها التجريح في البشر.

ستمطر ، نعم ستمطر.

فلتمطري ، فلتغسلي بطهرك قلوب البشر المتسخة. غذي بماء سمائكِ أرواحهم الجائعة ، لتنبت أرواحا طيبة تمتص حقدهم ، كراهيتهم العمياء ، جفائهم ، وسخطهم الذي عم الأرجاء..

تلتفت بقوة كأنما سمعت ضربا على الأرض ، كأنها ثيران غاضبة ، لقد جاء... لقد حان وقت العصا ، فتجهزي لها.

وتقدم أنت ، فلم تعد ترعبني عصاك ، سأتظاهر بالعمى أني لم أراك ، تجلدني ، اجلدني.

سأعتبره حلما غلبتني فيه ، لكن سأصحو. ستعي أنك لم تغلبني ، ولن يكون لك ما تريد يوما...

لهاثك ككلب عطشان ، كذئب جائع ، مزق ضعفي بقوة سوطه ، زدني قوة بنظرتك لأرعبك بصبري ، لأجعل حياتك جحيما كما أسكنتنيها بالأمس واليوم.

هل أنهكك الجلد ، أم أنهكك الظلم داخلك؟ قد ارتوى من قوتك على فلذة كبدك تصهرها اليوم بجمر غضبك. سيتركك يوما قريحا ، طريحا في الفراش...

_ لا أكل ولا شرب الليلة.

يتكلم معها بأنفاسه المتقطعة بالكاد يسترجعها ، بعد أن شفا غليله منها ، وخرج ينتهر في زوجته... تنظر إلى أمها بعينين متورمتين تكادان تنطقان ألما.

لا بكاء بعد اليوم ، سأظل صامدة رغما عنه ، وعنهم جميعا... جميعا هل تفهمون ، وتسقط دموعها لتمسحها بكبرياء.

لا تسقطي ، أنا أكرهكِ أنتِ سبب ضعفي...

وتتكئ على حافة سريرها تشهق بالبكاء ، وأنت أيها الأستاذ السيئ ، من سلطك علي؟ من؟.

أنا حتى لا أعرفك وجعلتني عدوة لك ، لماذا؟؟ تضرب الفراش بقوة. بصوتها المتعب ، وتعتعتها الدائمة ، تمسك بيد أمها محاولة غلب الوجع بكلمات أمها التي تتنزل على قلبها بطمأنينة فتخفف عنها:

_ لا تقلقي علي فأنا بخير ، ابنتك لم تعد تؤلمها ضربات العصا ، ولا يوجعها قلبها قهرا ، ابنتكِ أصبحت قوية. حتى ذلك الجلد اللين قد استغلظ ، فهيا اذهبي ، سوف يغضب منكِ وسيضربكِ.

تنحني إليها لتطبع على جبينها قبلة طويلة محاولة الوقوف ، فلا تقوى إلا بحافة سرير ابنتها ، ناظرة إليها ببصرها غاصت في الأرض سارحة بعقلها بعيدا ، بعينين امتص الحزن بريقهما.

******

أصوات مزعجة في كل مكان ، إنها تنخر أذني نخرا. تؤلمني تلك الحروف التي تغرس أنيابها بعقلي ، صراخه أصبح يثير أعصابي ، يحولني من كائن هادئ إلى وحش كاسر لا يفكر إلا في الافتراس ، تثيره رائحة الدم المبعثر هنا وهناك. يناديني فكأنما يطعنني بسكينة في قلبي...

آه ، أين المخرج؟ لا أريد أن أسمع أحدا ، أريد أن أنام فقط. النوم بلا يقظة بلا صحوة. كان يقلبه الأرق ألما يمينا وشمالا ، بمقلتيه الغائرتين في عقله التائه ، ينظر هنا وهناك ، لا يدري من أين تأتيه الضربة التي تفقده إحساسه البشري وتمسخ فكره البريء إلى أفكار شريرة ، يلتف بجسده حتى تحسبه كرة على ذلك السرير ، شارد البصر ، وفجأة:

_ أنت ، ماذا قلت لك في الغداء؟.

استقام برعب واعتدل في وقفته محاولا أن يحمي رأسه بيديه اللتين حملتا آثار الربط:

_ أنـــ ، نـــــا ...

_ أنت ماذا؟.

وانهال عليه ضربا ،

هل علي أن أعيد كلماتي ، أأنت حمار يا « عقيل »؟؟.

_ كنت بالمدرسة فلا تضربني يا أبي...

_ تعال إلى هنا.

وسحب حزامه من بنطاله يجلده به كأنه جمر ينزل على جسده الذي لم يشفى من الجلدات السابقة. وهو يقاوم لكن عبثا فتسقطه جلدات والده القوية...

بكلمات قد يستعطفه بها:

_ لا يا أبي لا تضربني ، إنها تؤلمني.

وهو لا يسمع من كلماته حرفا ، بل يسمع كلمات نفسه الخبيثة تثني عليه ما فعل...

يضرب في جسده الهزيل ضوء القمر مغرما ، فيغطي عينيه تهربا منه ، يتمتم مع نفسه. من عسى سينتبه لمجنون يجوب الشوارع ، من سيرأف لحاله؟ ينظر بتلك

العينين الذابلتين ، فستقيتي اللون ، ببشرة كستنائية لا يمتع ناظره شيء ، فماذا قد يمتع مجنون غير النوم ، ليهرب من هاجسه إلى المجهول...

******

« تلك الطريق لا تنتهي. ملل ، ملل.

هاته العيون تجري نحوي ، والأرض تتمايل كأنها ترغب في ابتلاعي ، تنظر فتستلقي عليها غيوم سوداء ، ألم يكن الجو مشمسا منذ قليل؟

ما لذي... آه ، آه.

بأنفاس متسرعة تشد يديها بقوة ، محاولة أن تتحرر من شيء. لكن بدون جدوى ، قيود؟؟

_ من الذي قيّدني؟ هل من أحد هنا؟؟

تفر متراجعة للخلف برعب. هاه ، أفاعي ، آه.

لا ، لا. أمي أين أنتِ؟ ابتعدي هيا ، ألا تفهمين ، فحيحكِم يأكل عقلي... كفى.

كانت تغير الأفاعي من شكلها كلما صرخت ، تتعرق بشدة ، ساحبة يديها من الأصفاد بقوة لتنجو ، فيخرج والدها من فم إحدى تلك الأفاعي محاولا لدغها بلسانه. يدنو ، ويدنو منها ، كأفعى تتلذذ فريستها قبل الانقضاض عليها

، تومئ له أن لا تقترب ، فتبهت أطراف جسدها وتبرد استسلاما ، مسرعة نبضات قلبها الذي كاد يخرج من فمها..

_ يد من هذه؟ يساعدونني؟.

بفرحة عارمة تمد يدها لتمسك بتلك اليد ، ببطء ، ببطء .. لكنها تتوقف.

أصوات ضحكات بعيدة!!! قهقهة؟ تغمض عينيها لتركز على مركز الأصوات التي تدنوا منها شيئا فشيئا. تفتح عيونها لا زالت اليد تدنو ، لكنها بسرعة هذه المرة ، لم تستطع أن تتحرك من مكانها ، تلك الأصوات المزعجة بدأت تزداد وتعلوا ، وإذا بصوت اخترق ذلك الخيال المرعب ، وانقشع الضباب الأسود عن المكان ليغادر طيف والدها.. فتلتقي عيناها بعيونه خاطفة أنفاسها من جسدها مما أشعرها بالاختناق ، لا تتوقف تلك الأنفاس كغزال نجا أخيرا من مطاردة ليث جائع له... ».

كانت نظراته المتسائلة تود لو تطمئن عليها ، لكن كبرياءه أبى ووقف حائلا أمام طيبته ، فكانت قاب خطوتين أو أدنى ورأت ما لم يستطع أحد رؤيته ، هاربا منها يضرب الطاولة بقوة وقد بدا متوترا للغاية ، محاولا إدراك نفسه قبل أن يسقط في تلك العينين الساحرتين:

_ اقرئي النص « شامخ ».

صمت الجميع ليستمعوا لها ، وبصوتها الخافت تهمس للسكون مما جعل دقات قلبه تزداد وتزداد ، يرمقها بإعجاب خفي:

_ ارفعي صوتكِ .

تسترق النظر إليه بين الفينة وأختها ، فترفع عينيها ناحيته والإحراج يلجمها ، فإذا به يغير نظره ناحية طالب آخر يطلب منه الإكمال بعد أن لمحته يراقبها ، وفي خاطره ألف سؤال وسؤال مما رآه في وجهها...

******

في ذلك الفناء الواسع بأرضيته المرقعة كبساط بال ، تجلس في أحد الكراسي المصفوفة بعناية وليست أسوأ من تلك الأرضية على كل حال. تنظر بين الفينة والأخرى عسى تجده في الشرفة التي تحيط بها بعض النباتات الصغيرة في بيوتها الصغيرة المربعة ، وتحتها تقطن شجرة ياسمين تزينها. ووسط الساحة غير بعيد عن الشرفة عمود أبيض قد علق فيه علم الدولة بتلك النجمة والهلال بلونهما الأحمر القاني بين حقلين من البياض والخضرة ، كان يضرب في الهواء بهيبة ينثر الشموخ وذكرى الذين ماتوا في سبيله...

كانت دقاته وهو يعزف بطرفه في الهواء تذهب عنها الحزن.

تمشي ناحية قسمها في تلك الساحة المكتظة بالتلاميذ كأنهم حمام بيض بتلك المآزر الناصعة البياض ، ترى في وجوههم الملل ، الكسل ، المثابرة ، الهمة

العالية... وآخرين سمات الشقاء تعلو وجوههم الذابلة كأنها غيوم مثقلة تنظر ، وتنتظر ، أي استفزاز واحد وستهطل العبرات...

حاملة حقيبتها مغادرة بقلب قد نزع عنه دقاته المعهودة ليلبس الطمأنينة التي سرعان ما باغتته دقات تنذر بالشؤم كأجراس معلنة الحرب ، وما هي إلا بضع ثوان ويدق الجرس. وهي بين جدران ذلك الرواق الطويل ، الطويل فهكذا كان يبدو لها والذي لا يخلو اليوم إلا بشجارات فيه أو لقاءات عاطفية سريعة ، تهب فيه كل المشاعر التي سرعان ما يبددها حرس الأخلاق...

_ أنتِ..

تلتفت بهدوء:

_ نعم؟.

_ ما لذي فعلته لمدرس الانجليزية حتى ينهر بوجهكِ دائما؟ لدي فضول لأعرف أيتها المجنونة. هل كنتما على علاقة مثلا وتركتما بعض؟ لكن أشك في أن وسيما مثله يقيم لكِ قدرا ويربط نفسه بعلاقة مع معتوهة مثلك.

قوست شاربيها نحو الأسفل وهمت بالمغادرة ، متجاهلة وجودهما. وإذا بها قد شعرت بيد تمسكها من ذراعها فتأوهت من الوجع بسبب الضربات التي تعرضت لها بالأمس... تراجعت « فتون » للخلف:

_ ابتعدي عني وإلا...

_ وإلا ماذا؟ تعرفين أنكِ ممثلة بارعة؟ أنا لم ألمسك حتى وبدأتِ تتأوهين من الألم ، كم أنتِ حقيرة يا سافلة... أخبرينا من طبع على عينيك تلك الكدمة ، لابد وأنه رجل آخر وعدته ونكثت بوعدك له.

تضحك بسخرية على تعتعتها التي كانت تحاول أن ترد ، وكيف لفتاة ترتعد على الدوام خائفة ، تمشي كمن تعرض لصدمة كهربائية ، تتراقص قدماها من شدة الارتعاش أن تهددها ، والتي إذا مرّت بجماعة من التلاميذ أسرعت كالبرق حتى لا يوقفها أحد ، رمقتها بنظرة كمن في فمه كلمات لكنها فضلت المغادرة مهرولة تشد في الجدران أن تسقط...

_ ما بها؟ هاهاهاها ، حقا أستغرب كيف لهاته المعتوهة أن تتقن الفرنسية.

تصطدم بشيء ما ، رفعت رأسها فتراقصت مفاصلها ، وازدادت ضربات قلبها ، فخفضت رأسها بسرعة ، واضعة يديها على أذنيها خوفا من أن تهطل عليها الشتائم ، مغمضة عينيها بشدة...

لم تسمع شيئا ، تزيح يديها بهدوء ، لا كلمات؟ حاولت أن تفتح عيناها بحرص شديد. همسات وضحكات؟؟ فتحت عينيها أخيرا ، تنظر... إذ بمجموعة من الفتيات ينظرن إليها ، وهي تتلفت باحثة عنه بعينيها التي ازدادت لمعانا ، لا أحد كان غيرهن ، فتجري مسرعة نحو حجرتها.

_ هل هي الفرحة؟ أم أنه السكون قبل الفاجعة؟!

*****

سامحيني

تبتسم لنا الأقدار ، فلا نعلم هل تمازحنا أم حقا تكافئنا جراء صبرنا. أم أنها خطة أخرى لاستدراجنا إلى فخ آخر ومتاهة أخرى مرعبة ، ستجعلنا بؤساء ، تعساء أكثر من ذي قبل...

كانت في تلك الغرفة المعتمة تضيء تسابيح وجهها إذا ما ابتسمت ، وتزيدها ظلمة إذا ما عبست. هكذا كانت تارة مبتسمة وتارة متجهمة ، توقفها إذا ما خنقتها الأفكار المخيفة ، وتقعدها إذا ما أحست بطمأنينة... داخل غرفتها التي تشاركها حلو الحياة ومرها ، تأتي وتذهب وتطوف بسريرها ، وإذا ما تعبت من التفكير ، استلقت على سريرها. هذا حالها منذ أن قدمت من الثانوية ، كلما حملت كتابا لتراجع ، تستذكر ، تجده داخل كتابها يرتسم بين الحروف ، إذا ما التفتت إلى الجدران هربا ، لاحت صورته عليها فأغلقت كتابها ، وارتمت في أحضان سريرها مجددا ، محاولة الهروب منه ، فإذا بها هربت إليه ، أين ينتظرها في خيالها..

أغمضت عينيها عسا ترتاح ، فما هي إلا لحظات حتى فتحتهم تنظر إلى ذلك الجدار في عراك مع النوم فتكون الغلبة لها وتنام... إذ بظل أسود يرتفع شيئا فشيئا ناحيتها ، فجمد الدم في عروقها ليحبس أنفاسها داخل صدرها الضيق.

يقترب ويقترب ، لتظهر ملامح طيفه أخيراً ، على ذلك الجدار الذي لا يضاهيه قسوة غيره ، كأنه سحابة سوداء.

كان يقف عند الباب ضخم البنية.. دققت النظر ، وفجأة ، فتحت عينيها تتحدث مع نفسها:

_ أوهٍ ، يا ويلتاه... جاء أخي « سعيد »؟.

عضت على شفتها امتعاضا ، فصاحبه مغص شديد واغرورقتا مقلتيها دمعا.

انتظر بضع ثوان ، ثم غادر ، ليتركها جثة هامدة...

******

الغيث. يا الله أغثنا.

قدومك يسكن الأرض الرابية ، الظمآنة المتشوقة للوصال.. أغيثيني ، تنزَّلي على قلبي اليوم كما تنزلين على هذه الثرى واروِه..

_ ترى هل وجد مكانا يستتر من الغيث أم أنه لا يحس به؟!.

يقطع ذلك السكون صوت وصال الأرض بحبات المطر المتراقصة ، تشهق فرحا على فناء منزلهم. وإذا بصوت مزمجر يفرق شتاتهم. فتقفز مُتقفْقِفة..

_ ارفعي رأسكِ..

سحب شيء ما أنفاسها لداخلها سحبا ، كان قويا ، كان مثيرا للخوف ، مد يده ليأخذها من ذقنها إليه ، مما آلمها ، يضغط ويضغط بلا رحمة ، بغضب شديد سارعت الأم ناحيتها:

_ انظري في عيني..

_دعها لقد أوجعتها ، ما هذا؟ في كل مرة تقدم فيها إلى البيت تفتعل مشكلة لهاته المسكينة؟؟؟ كفى ، لقد امتلأ القلب من تصرفاتكم الظالمة...

اختبأت خلفها بعد أن تركها ، ترتعد كطفل صغير. زأر بها ابنها حتى جحضت عيناها واحمرتا:

_ ابنتكِ تضع كحلا؟ هل أصابكِ العمى؟ أترين فقط تصرفاتي ، بدفاعكِ عنها قد أصبحت سافرة ، متبرجة ، ملعونة..

بصوتها اليفْن ردت عليه:

_ لا تظلمها يا سعيد ، خاف الله في ابنة أمك ، إنها لا تضع شيئا أنت مخطئ. دعها وشأنها ، لم لا تقتلونها وتريحونها ، أصبح كل واحد يضرب لوحده كأنما جبل لا يتألم ، لا ينطق...

_ تفوه...

وخرج من المطبخ يهددها بإصبعه أن قد يذبحها..

_ تبصق أمامي يا قليل الأدب؟.

تنهدت الصعداء ثم انحنت جانبا وعروبة لا تزال ترتعد ، ساقطة دموعها على خديها كما يسقط المطر.. تدنو منها لتمسحها لها.

_ لنخرج..كان والدها الذي ناداها ، سارعت لتمسح دموعها خوفا من وقوع مصيبة أخرى.. وهو الذي يخرج ويدخل منتهرا على الدوام ، حملت حقيبتها بمساعدة أمها بعد أن طبعت على جبينها قبلة مليئة بالأسى:

_ اذهبي وفّقكِ الله..

عانقتها عناقا حتى شعرت الأم برهبة منه ، وبقيت تتبعها بعينيها إلى أن أغلقت باب المنزل..

_ أبي انتظر..

_ ماذا يا بني؟!

_ راقب ابنتك ، وإلا ستفلت منك..

_ هل تشك في تربيتي يا ولد؟.

بغضب شديد رد عليه ، فدنا منه سعيد قليلا ، يوشوش في أذنه:

_ بنات اليوم لا يؤتمن لهن جانب ، فالتمس الحذر لتسلم من ألسنة الناس..

رمقه بنظرات ليست بأسوأ من التي نظر بها إلى ابنته عروبة ، ومشى في ذلك الطريق الموحش تمشي هي خلفه بوجع.

******

في تلك الطريق التي تبللت بمياه الأمطار تغزوها. تجر الرياح الأغصان إليها يمنة ويسرة.. ويوم كئيب آخر يمر كسابقات الأيام ، طمعا في أخر تسر فيهم الخواطر ، تسير ببطء ومرارة.

شهر ونصف قد مر على بداية الدراسة ، والحال كما هو لم يتغير ، لكن الوجوه تغيرت وذبلت وقليلون من نمت فيهم زهرة الحياة بنضارة ، فهناك من جرته ناحية السعادة ، والبعض سحبته لعالم المآسي ، كما هو الحال عند « عروبة » و « أمازيغ »..

_ مرت الأيام بسرعة... ترى أين ذلك المسكين ، إني لم أعد ألمحه في الحي. أين ذهبت؟! أرجو أن لا يكون قد حدث معه مكروه.

وفوضى ذلك الرواق الخانقة لا تنتهي ، كما هي تساؤلاتي. أفتش عنه في عيون الآخرين كأنما ضيعت ما يعز لدي ، أبحث عن حكاية وسط الزحام ، أظنها لن تكون إلا في خيالي.. لتولد ، أراقب عسى تتمخض في الأيام فتلد قصتي معه ، قصة كالروايات لا تنتهي إلا بـــ « عاشوا في سعادة وهناء » ، لكن ما هو ثمنها؟ ففي هاته الدنيا لا شيء بالمجان حتى الابتسامة ، ادفع تنل. والبائس ادفع قلبك ، وادفع عقلك لبعض قطرات الفرح الزائل سريعا حلوها.. أمشي ، أعد أنفاسي ، خطواتي ، وتلك الساعات التي تفرقنا ، و...

رفعت رأسها صدفة لتنقطع بصورته أفكارها ، تيتم عباراتها بنظراته ، فتلتقي العينان ذات الأمواج العاتية بعينيها الحائرة ، وما الذي قد يسكن غضبهما؟ خفضت عيونها واحمرت خجلا ، تود لو أنها توقف الزمن بعضا من الوقت ، وقد اقترب منها ، فخافت وودت لو تهرب ، من سحره القاتل ، كلعنة لا تفك عقدها ، كأحجية يعسر حلها... يخفض عينيه هو الآخر ، هل يود أن يقول كلمة ، أسبح في خيالي.

يا بنت لا تحلمي فالـ..

_ اربطِ خيوط حذائكِ...

ارتعدت خجلا ، ونظرت بسرعة إلى قدميها..

_ يا إلهي!!.

وضعت يدها على شفتيها اللاتي كأنهن حبة كرز تعتصر وجنتيها وردا ، لامعة عيناها كنجمة تغمز وسط ظلمة قلبه. وترتها كلماته التي تخدرت منهم مشيتها ، تعاتب نفسها بعيدة عنه كما لم تسلم نفسه من عتابه:

_ فعلا أنا كتلة من الغباء ، ما دخلي فيها. آه ، آه..

تنهد متوترا مفرغا شحنة غضبه على شعراته الذهبية المموجة ، وقد احمر خجلا.

_ ما لذي فعلته ؟!

_ شكرا.

التفت خلفه كأنما أحس بها تهمس بشيء لامس أذنه فاستقر همسها في قلبه ، بابتسامتها العريضة الآسرة وسط ذلك الزحام تبتلع دقات قلبها ، فطغت على كل الأصوات ، ولم يتبق غير صوت أنفاسها المضطربة. حاول أن يكمل طريقه صاعدا الدرجات لكنها جذبته إليها بلا وعي في كل خطوة يخطوها ، يسترق النظر إليها كل برهة.

_أستاذ هل صحيح عندنا امتحان اليوم؟.

نظر كمن ضاعت منه الأفكار ، وفقد القدرة على الكلام ، يبحث عنها فلا يجدها.

_ لابد وأنها غادرت...

نظر لتلميذه يومئ له برأسه ، صاعدا بقليل من الأسى تتجرعه قدماه...

******

تغسل في الصحن بعقل شارد ، إذا ما نادتها أمها لا تسمعها ، غارقة في ذكرياتها المتشعبة ، تسرح بخيالها إليه ، في عيونه المتلاطمة ، في مشيته المتكبرة ، في طوله الفارع كأنما نخلة شامخة... تعيدها الذاكرة بسرعة إلى آخر لقائهما حيث كان لطيفا معها قريبا منها.

ويح الكلمات في حقك لا تستوفيها ، واللعنة على حظي التعيس. كيف السبيل إلى السعادة وأنا حبيسة هذا البيت الظالم أهله؟ أوهٍ ، كيف؟.

_ اذهبي ونامي بوركتِ يا بنيتي..

« عروبة »؟

شيء ما ثقيل نزل ببطء على كتفها فاهتزت له تشهق وقد أمسكت قلبها تحاول تخفيف نبضه المتسارع ، ملتفتة خلفها.

_ أنتِ بخير؟ ما لذي يشغل بالكِ في هاته الفترة لست على ما يرام ، كلما ناديتكِ ارتبكتِ ، يأخذك عقلك بعيدا...

أومأت برأسها بعد أن خانتها الكلمات التي لم تعد تجدي ، فمن سيتفهمها. فهّمتها أن لا تقلق وقبلتها متمنية لها ليلة سعيدة ، موهمة نفسها بذلك ، فلن تكون هناك سعادة بهذا البيت. مشت ببطء ناحية غرفتها تحت أنظار أمها التي خنقتها الحسرة...

لم تخلق لنا السعادة يا أماه ، نحن الأشقياء ، نحن البؤساء لا تسعدنا غير أكفان تستر دمعنا إذا نزل صراخنا إذا علا ، آهاتنا إذا اختنقت في صدورنا. منذ متى البؤساء ينامون فرحين بما أتتهم الحياة ، وهل أتتهم الحياة أصلا بشيء يثلج القلب...

أنارت تلك الغرفة الباردة الضيقة الزوايا ، في هاته الليلة التي تبدو كغير كل الليالي باردة كئيبة. وذلك السرير طريح الأرض على الدوام ، وتلك الستائر الحزينة ، وهذا الضوء الشاحب ووو...

جلست بحزن بالغ ، تفتش في عقلها لعلها تجد بصيص أمل فتنام مطمئنة

مرتاحة ، تستذكر ملامح السعادة التي تزهو على وجوه الفتيات عداها ، بائسة تشحذ من الأيام لحظة فرح وقد استلقت مضمومة الفخذين مغمضة عينيها...

******

_سامحيني..

تلتفت فتفتح عينيها الصدمة ، قد سبقتها البسمة وتربعت على وجهها الناعم ، تحدث نفسها.

_ هو ، هو..

_ لقد أحرجتكِ كثيرا أمام الآخرين و...

صمت قليلا يبادلها النظرات المعبقة بالعطف ، يدنو منها بهدوء ، فتتراجع بخطى خائفة تتفحص المكان بعينيها عسى أن لا تجد أحدا ، بأنفاس سريعة ، يكاد قلبها يخرج ممزقا صدرها ، سرعان ما تروضه بيدها فتربت عليه بحنان. أوقفها شيء ما كأنما كان يدفعها إليه ، نظرت إذ به الجدار ، لم يتبق بينهما غير شبر وألصقتها الرهبة بالحائط. فكانت أول مرة ترى بحره ساكن الأمواج ، وضع يده على الجدار محاولا منعها من الهرب ، تأكل عيناه عينيها بشراهة...

_ عيناكِ ساحرتين..

_ آه؟.

أحست بجسدها يعرق من شدة الخجل ، فأشعلت كلماته جسدها الذي كان ينصهر ، تحاول الافتكاك منه هربا من جديد ، أرادت أن تقول له ما في خاطرها ، ما يزعجها ، ويجعلها تعيسة ، تشكو له وإذ بيد ناعمة تحط على ذراعها ، فترتعش منها:

_ « عروبة » ، يا حبيبة قلبي ، هيا أفيقي قد حلّ الصباح.

فتحت عينيها ببطء ، بصوتٍ خافت ناعم يملأه الأمل:

_ نعم.

تلف رأسها ، تبحث عنه ، وغير غرفتها الكئيبة لا أحد تجد ، تغمز لها أشعة الشمس من خلف الستائر. توسدت يدها بحزن:

_ كان مجرد منام ، فيما عسى أطمع إلا في الأحلام ، فعلا حمقاء أنا...

قامت وجلست ، تشير في الهواء بيديها النحيلتين ، تبعد بهما الشعرات السود المنسدلة على عيونها:

_ أصلا ذلك المتكبر لا يحسب حسابا لأحد.. متكبر ، وسيم ومتغطرس.

وضعت يديها على فمها خشية أن يسمعها أحد.

******

باللغة الانجليزية يحيي تلاميذه. معطرا أرجاء الغرفة الدراسية بعطره الفواح ، يسحر من يسمعه ، مصوبين نظراتهن نحوه. إلا عيون خجولة تخشى النظر ، فتفضحها دقات قلبها وأنفاسها المتناثرة. يجول بين الصفوف واضعا يديه في

جيبه ، بهيبة الملوك:

_ جهزوا ورقة وقلم وضعوا جميع حقائبكم في الأرض.

صعق الجميع وتكسرت نظراتهم ، واهتزت الجدران من همساتهم. يخافون الامتحان ، كخوفهم من خرافة مصاصي الدماء..

_ يا لا الهول.. امتحان؟.

_ نعم امتحان شهري ، لم يتبق لنا على الامتحان الفصلي إلا شهر واحد وبضعة أيام. لهذا علينا المراجعة فلا داع للخوف...

وقد نظر ناحيتها ، أين ازدادت أصواتهم ارتفاعا يتحدثون مع بعضهم.

_ ماذا قال؟.

فهم من فهم ، ومنهم من يعصر مخه ليخرج له بترجمة صحيحة ، يتعاركون مع الكلمات عراك الدِيكة ، والفئة الأخيرة غير مهتمة لشيء ، خارج هذا العالم تعبث في عالمها الخاص.. ويبدو أن عروبة حبذت الفكرة فقد كانت ترتسم على شفتيها ابتسامة عريضة ، رآها فأدبر عنه الحزن والغم ، وألقت في نفسه غبطة أراحت قلبه الذي عمه فوضى المشاعر المتنافرة داخله ، يلتفت نحو باقي زملائها وقد أكلهم الخوف وامتص دمائهم فاصفروا ، يبدو انه ألف الوضع هنا لكنه لا يرغب في إظهار هذا. فلم تقوى العنصرية التي استعمرته إلا أن تغادره مكسورة شوكتها ، وحبه الشديد لأداء عمله بأمانة زاد تعلق الباقين به.

_ سألغيه للمرة القادمة.

انفجر القسم بالضحكات وعمت الفرحة ، مما جعله يضحك ، أما عروبة فقد استغلت الفرصة ، لتنظر إليه وسط تلك الفوضى العارمة ، فكان سباقا. وما إن التقت العيون حتى أشاح ببصره إلى ناحية أخرى يكلم أحد الطلاب.. في حين كانت نظرات سامة تراقبهم .

******

أخ ، هاته الساعة تأبى أن تتقدم ، حتى تلك النافذة حضروها عني.

تدنو مقتربة من طاولتها وحملت كتاب الإنجليزية لتغوص في عمقه ، تراقص خيالها وتسترجع اللحظات الجميلة ، سريعا تخترقها السيئة منها. أغمضت عينيها فوجدته أمامها يلقي درسه ويشرح الكلمات فتنساب للعقول بلا عراقيل ، لتستقر بالذاكرة. يشرح بعسرة مجاهدا عينيه وقلبه ألّا يميلان كل الميل ناحيتها فيوقعانه في موقف محرج ، كانت تصرفاته مجاهرة حبذا لو أنها غير موجودة. لكنه يفشل ولا يجد نفسه إلا وقد سدد طرفه اتجاهها ، فتتبعثر الكلمات في فمه ، ويتلعثم على غير عاداته ، فتفلت منه زمام الأمور ويخرّ جبروته راكعا في محراب عيونها.

أما هي فكانت لا تدخر نظراتها إلا وتشبع عيونها منه ، فقد كسر فيها حاجز الخوف وسكنه هو. فإذا ما فرغ من كل أمر كانت هي أمره الشاغل ، يلعب

بأصابعه يفرقعهم بين الفينة والأخرى ، مدغدغا شعره إذا ما استنفذ كل طرق ذات وصل إليها ، مدلكا رقبته ، أو يمسح على وجهه..

لا فائدة ، فينفجر ناظرا إليها مجددا ، فيهزم الخجل عينيها لتسدل طيفه عليهما. كان حيائها يثيره ، فيسارع للأفكار يفتش في حل يجعلها لا تخفض عينيها عنه دون خوف ناظرة له بوجهها الناضر. عبثا حاول ، فولى مهزوم القلب بصبابة ، فقد عودته النسوة على النظر إليه تأكلنه شغفا ، إلا هي المختلفة بكل شيء ، تحمل سرا غريبا ودّ لو يعلمه:

_ شامخ هلا أجبتنا على السؤال.

كانت هذه إحدى الحجج التي لم يجد غيرها ، رفعت رأسها ، وانفجر محياها بالحمرة تحدق في اللوحة المعلقة بالجدار ، مثلما عيونه تعلقت بها. لكن سرعان ما تجيبه وتعود لطبيعتها ، فقد كانت مجتهدة مما أسرته بمثابرتها عن البقية ، وهذا ما زاد الطين بلة فكثرت العيون التي تترصد بها وتبيت لها سوءا وخبثا...

_ آه ، أيتها الناموسة الشريرة ، هل كان عليك المجيء الآن وتفسدين حلمي؟.

نظرت إلى الساعة في حضن الجدار وهي تحك على مكان لدغة الناموسة ، بالكاد تفتح عينيها بعدما أيقظتها من نومها حتى تجد نفسها لازالت على كرسيها تتوسد كتابها:

_ يبدو أنني نمت دون أن أشعر..

رجعت للساعة بعد أن فركت عينيها ، وضيقتها ثم فتحت:

_ إنها الحادية عشر ليلا ، سأصلي وأنام.

******

تمشي خلف أبيها على ذلك الرصيف الطويل ، تارة تسرع وتارة تبطئ. كان يظلها كأنما شجرة ضخمة أو سد عالي محاولا إخفاءها عن عيون الناس ، لكن محاولاته تبوء بالفشل فجمالها الآسر كان يضيء من خلفه ، تلبس عباءتها السوداء الفضفاضة التي تداعبها الرياح الخفيفة بين الحين والآخر فتظهر بعضا من جسدها النحيل.. وهي شاردة إذ بها تسمع صوته وهو يصرخ محاولا استلال الحروف من جوفه لينطق لكنه لا يقدر.. مرات يتكلم ومرات تعقد مرارة الذكريات لسانه ، تبسمت لأنها رأته أخيرا بعد غياب طويل واطمأنت عليه..

كان رجلا في الثلاثين من العمر ، تقتلها الحيرة ، ما الذي أذهب عقله وتركه بلا قيمة تدوس عليه الشتائم النتنة من أفواه البشر؟!. لابد أنه كان حالما وطيبا ، فلا تذهب الحياة زهرتها إلا عن الطيبين ، رمقته بنظرات مليئة بالرأفة ، واكتسى عيناها بالحزن. لا يحيد ببصره عنها هو الآخر ثم نظر في الأرض مطولا ، وعزمت قدماه على الرحيل...

«...« عقيل »، يا « عقيل ».. أين هذا الولد العاق؟!.

ضرب الباب بقوة حتى التصق بالحائط ، مما جعله يقف فزعا.. يحدق إليه بعينيه المفترسة ، وأذنين متعطشتين للصراخ والآهات..

تعال إلى هنا أيها الحقير ، لقد أتعبتني حقا.

وانهال عليه ضربا باللكمات والأرجل فلم يجد المسكين غير يديه يحمي بهما رأسه:

ـ أرجوك لا تضربني ، آه.. دعني...

يصرخ بلا توقف ، توجعه الضربات على جسده الحديث بالجروح... »

صرخ مجددا بعد نوبة صمت عابرة ، فإذا بعينيه تلتقي بعيني « حازم » والد « عروبة » ، فيطلق صرخة مدوية رجت كيانها ، وفرّ بعيدا...

لا أحد مهتم ، أو يعيل أحدا بغير مصلحة ، فمتى ما نفذت لم يعد لصاحبها قيمة وهكذا تعودوا على صراخه الملقى على عتبات آذانهم ينتظر من سينصت لآهاته. ذهب وترك في « عروبة » أثرا بالغا ، أحست أنها قد تكون يوما ما مثله ، رابط ما جذبها إليه ، لا تدري ما هو لكن الخوف سكن جسدها الذي لم يركن من تلك الصيحة ، خاصة مع القصص التي تداولها الناس عنه أن والده كان لا

يتوقف عن ضربه ، معتقدا أنه بذا يؤدبه فأصبح ما هو عليه الآن. أخ ما أقسى البشر...

تمشي بعينين حزينتين تعد خطواتها على الأرض ، عسى تصل بسرعة إلى الثانوية.. وفجأة أوقف والدها رجل غريب ، فتوقفت ليحادثه ، همس في أذنه بضع كلمات أمامها ثم ابتعدا قليلا عنها ، وما هي إلا لحظات حتى قدم وعينيه تقدحان شرا.

ما إن رأته حتى ارتعبت ، وزارها إحساس أوجع وجدانها ، تراجعت منه خطوتين ، وقد راودتها الأفكار المخيفة...

******

ولدت من طرفكِ

تلك النظرات ترهبني ، تخنقني.. اهدئي يا « عروبة » ليس هناك ما يستدعي الخوف. كيف لا يســ... قلت اهدئي ، لا تستسلمي للبشر غلاظ القلوب. تعتصر مخيلتها ، لتتفادى بذي نظرات إحدى زميلاتها المريبة. تلتفت في ذلك القسم الذي عمت أفراحه ، كلما حان وقت حصة الانجليزية ، فصار لا يزهو إلا بحضور مدرسها ، فتخلع الجدران عنها الحزن والكآبة كأنما عيدين في سنة مليئة بالمآسي..

تغص ، وتغص في أعماق فكرها ، إذا ما عضت عليها الذكريات المؤلمة رأيتها منزعجة ، وإذا ما هبت على الذاكرة طيف أستاذها انفجرت الابتسامة في وجهها... رفعت رأسها بعد أن ذهب عنها التوتر ، وإذ بتلك التلميذة لا تزال تحدق فيها كحية ضخمة تشخص حالة فريستها لتفتك بها فتبتلعها دفعة واحدة ، نظراتها كانت تقطر كرها ، ولم تفهم « عروبة » سببه. حاولت تجاهلها ، فلم تكن تولي لها كل ذلك الاهتمام ، وراحت تركز مع أستاذة علم الأحياء وشرحها المسترسل عن النباتات ، تلك الكائنات الرقيقة ، كيف أنها تتنفس كالإنسان وتشرب و تنام ، وحتى تتألم. لكنها لم تذكر ذلك ، أنا أسمع أنينها المتقطع في بيتنا ، فأهرع لأسقيها ربما هي عطشى لكن بلا جدوى فهي لا توقف أنينا...

تنهدت بقوة كأنما رأت ما أزعجها ، وقطبت حاجبيها.

ما الذي أزعجكِ أيتها الحية السامة ، فحيحك أصم أذني ، تحدقين بعينيكِ الكبيرتين الخضر ، وذلك الجسد السمين يبدو كبرميل جالس على كرسي. أفٍ لها. ضاحكة مع نفسها.

اسكتي يا « عروبة » ، سيراكِ أحد ويقول أصابها خبل.

كانت كأنما طفلة ناعمة ، بريئة اغتصبتها الهموم فسلبت منها تلك الروح المرحة.

******

انتهت الساعتين ، وفي ذلك الفناء الواسع أين تتعانق الأرواح بلا عوائق وتتسلى القلوب وتدق في تلك الأجساد. بقلوبٍ حائرة ، منكسرة ، مجروحة.. كانت جالسة ، لا تبرح مكانها المعتاد حتى انكبت عليها وخزا تلك الذكريات المؤلمة ، فتفر منها لمكان آخر حيث لا تقربها. تشاهد أولئك الذين غزا العشق مستوطنات قلوبهم ، فترفع بعيونها ناحية الشرفة ، طمعا في أمر ما ، كأنما تتوسل الرومانسية من أحدهم. طأطأت رأسها مستسلمة لوضعها البائس.

عن ماذا يتحدث هؤلاء يا ترى؟ لماذا تعلوا الابتسامة وجوههم؟ يزعجونني ، لم لا أجد من يبتسم في وجهي ، ويلفني بنظراته التي تطمئن فؤادي الجريح؟ ما لذي ينقصني ، ماذا؟.

سقطت دمعة من عيونها التي تصرخ ألما ، وأوجاعا. سارعت لمسحها مربوطة الشفاه ، تدعي القوة المزيفة...

تنظر ، وتنظر. إلى هذا وذاك لا تمل ، إلى المبتسمين وقد كادت آهات قلبها تُسمع من به صمم ، إلا هؤلاء...

هؤلاء؟

ماذا يفعلون على ذلك الجدار على الدوام ، حرسه؟. تضحك بألم بعد أن رأت في عيونهم الذابلة نظرة البؤس ، فارغة أجسادهم.

هؤلاء أمثالي. تقفز بهم الحياة المزاجية كيف شاءت ، مشتتين ، ضائعين. تأخذ بأرواحنا المآسي لترمينا بقوة للمواجع ، أليس للقلوب الخبيثة نصيب ليتذوقوا العذاب؟ ما لذي وجدتيه في قلوبنا ، لنعاقب؟ اذهبي نحن سيئين ، هيا. اذهبي لتلك الضخمة وعاقبيها ، تلك التي أغرقها والدها بحنانه ، ليس عندي ما أعطيه لك رشوة مقابل رحمتكِ لقلبي...

رجت صدرها الأنفاسُ حبيسته ، لتخرج منها بقوة حتى وقفت هاربة من كل شيء وإذ بها تلمحه عند الشرفة فتسمرت مكانها...

_ هل فكرت بطريقة لتبعدي الأستاذ عنها؟ أراها كل يوم تتقدم خطوات عن ذي قبل وتسبقكِ إلى قلبه. فاحترسي يا « فتون ».

حدقت إليها ، وقد قفزت في عقلها مكيدة ، تتلون كحرباء في الأفق:

انظري...

أومأت لها لتراه في تلك الشرفة ، واقفا بهيبة يسترق النظر للسماء ، وميلت رأسها بحنق.

_تغيرت كثيرا هاته الصبية ، وحتى أستاذنا تغير...

_أنتِ تهذين ، ألا ترين كيف أن مفاصلها ستهلك اصطكاكا ، ترتعش كلما اقترب منها أحد.. لا تزال تلك الرعناء تشعرني بالغثيان بتلعثمها ، تعيسة هي الحروف التي في فمها ترجّها رجًّا قبل أن تدفعها للخارج ، كم تستفزني حين تبدأ بالنحيب. منافقة تفوه.. تشعل النار داخلي ، كم احتقرها ، آه...

_اهدئي ماذا بك يا « فتون »؟!

نظرت إلى عيون « عروبة » تحدق فيها تكاد تقتلها. ثم ترسل ضحكتها الساخرة كعادتها:

_غبية ، إنها تلعب معي لعبة البقاء ، لكن في قاموسي لن يبقى أحد حاول أن يتحداني.

إنها تبتسم؟؟؟ ما الذي رسم على محيـــــ...

توجه بصرها بسرعة صوب الشرفة ، بعدما أضرمت تلك الابتسامة النار في عينيها. كان متألقا كنجمة في ذلك الجو الباهت المكتئب قد أحاله بابتسامته إلى جنة ، تشع عيناه بالسرور ، سرعان ما اختفى من المكان.. قلت لكِ احترسي ، صار واضحا أنه معجب بـــ...

أنتي بخير؟ لقد شحب وجهكِ كأنما سحابة.

تعظ على شفاهها الرقيقة تكاد تأكلها ، لا تسمع أحدا ، متجهة بعيونها إلى البريئة مرة أخرى...

_ إذن قد أعجبته تلك الدابة ، سترين يا « عروبة » النار التي سأشعلها بينكما لن تنطفئ أبدا ، أبد الدهر ملتهبة..

******

تمسح أرضية المطبخ ، راقصة على صفارة القدر ، وخرير المياه المنسكب في الحمام ، قد فاض على أرضيته متجها نحو الرواق الضيق ، تناديها أمها فلا تجيب ، غير فرحتها التي تشدو داخلها لا تسمع ، تزهو على ذكرى ذلك الوسيم تتعبد في محرابها ، تسبح في بحر عينيه المترامي الأطراف..

_ « عروبة » ، ماذا بك أنا أناديكِ؟!.

تختلج فرائسها لتعيدها بسرعة إلى ذلك المطبخ الواسع.

_أين تشردين ككل مرة؟ قد ناديتكِ لتغلقي حنفية الحمام لكن لم تسمعيني.

همت لتغلقها فأوقفتها:

_ لا داع لذلك لقد أغلقتها ، أخبريني فقط ما الذي يزعجكِ.

تنظر لعينيها باستغراب ، فتهربت منها منشغلة بإتمام ما تبق من الأرض ، لتمسكها من ذراعيها على غفلة منها.

_ انتبهي إلي ، إذا حدث شيء ما فأخبريني يا حبيبتي. ما الذي يزعجكِ يا قرة عيني؟ لا أراك بخير...

_لا شيء غير الدراسة التي تشغل بالي.

رمقتها كمن لا يصدق؛

_ صدقيني.

_ حسنا سأصدقكِ.

_أمي هل جاء والدي اليوم؟.

ضحكت أمها ضحكة هرمة لا تقوى على فتح فمها:

_ماذا بكِ؟ سألتني كثيرا و أجبتكِ ، أنه لم يأت. وأيضا ، منذ متى تسألين عنه هكذا؟ هممم ، هل حدث أمر لا أعرفه؟!.

أشارت إليها برأسها بالنفي وتابعت المسح.

******

في تلك الثانوية الضخمة ، أين اكتست بنور القمر ، و تزينت بسكون رهيب.. حيث يجوب الحارس الليلي المكان كل ربع ساعة مراقبا لها بأمانة. وغير بعيد يقطن ثلة من الأساتذة قد تركوا أهلهم وأحبتهم يجرون خلف لقمة العيش ، فهناك من رمته الأقدار هنا وهناك ، فاختار البعد ليفر من ماضيه ، من أحد ما ، ليعيش بين جدران هذه الصالة بلا رغبة مسلوب البال ، لولا الحاجة القاهرة قبل أي مشاعر أخرى مهما كانت...

وضع قلمه وقام يدنو من النافذة بهدوء ، يتأمل ذلك القمر الذي يذكره بإحداهن على الدوام ، يخربش على زجاجها بعد أن ألقى من أنفاسه الدافئة عليها ، خطوطا مكتئبة كحالته. فجأة فتح عينيه كمن تذكر أمرا؛

_آه ، لقد نسيت الاتصال بأبي!! كيف حدث هذا؟.

واتجه مسرعا صوب هاتفه الخلوي الملقى على فراشه. يرن ويرن ، ولا أحد يجيب.. ينظر للساعة ، التي كانت تشير عقاربها للعاشرة والنصف ليلا ، فكر قليلا ثم قرر أن يعيد الاتصال مرة أخرى ، عسى يسمع صوته قبل أن ينام ، وإذ يسبق الرنين صوته الحاد بلهجته الأمازيغية التي تنساب في أذن « أمازيغ » فتبعث في نفسه الراحة:

_مرحبا يا بني ، كيف حالكَ؟ آسف كنت في الحمام لهذا لم أرد على اتصالك.

_مرحبا أبي لا تعتذر فأنا من وجب عليه الاعتذار ، لقد نسيت أن أتصل بك في

المساء...

_لا بأس ، لا تعتذر كنت سأسبقك بالاتصال تعلم أني السبّاق دائما.

وهو يضحك بصوت عالي كعادته ولكن « أمازيغ » اضطر للضحك معه بهدوء خشية أن يوقظ من بالصالة. وضل يحادثه ممتزجة ضحكاتهم ، واتصلت أشواقهم ليطول حديثهم ناسين غربتهم ، وتلاشت أعباء الحياة عنهما..

_ذكرتني ، هل يزعجك العرب هناك؟.

_لا يا أبي ، لا أحد يزعجني.

_متأكد؟!.

_نعم ، لماذا قد أخفي عنك أمرا وأنت تعلم أنك ربيتني على الصدق.

_فليحفظك الرب يا ولدي ، انتبه لنفسك فالغدر يسري في دم العرب..

طأطأ « أمازيغ » رأسه متذكرا « عروبة ».

_« أمازيغ » سأنام تصبح بخير يا ولدي ، نراك غدا.

_وأنت بخير ، أراك.

وضع هاتفه وحمل نفسه بثقل ، ليلقي بجسده على سريره منهكا ، ينظر للسقف بحسرة.. يتقلب يمينا و شمالا ، تخترق ذاكرته ابتسامتها الخجولة ، فيحاول أن يركز في أمر آخر هربا منها ، لكن بلا فائدة:

_ماذا أصابني؟ كيف أفكر بعربية؟ مستحيل. لابد أن الجنون أصابني..

يستقيم بعد أن شعر بضيق ، ليخلع قميصه ، فتبرز العضلات الضخمة على

ذراعيه ، ترتسم على بطنه ست عضلات صغيرة ، ببشرته البيضاء المنتشر في بقاعها شعرات ذهبية كثيفة على صدره وقليل منها على كتفيه متربع لماع. اعتاد على النوم بلا ملابس أيام الحر لكن وجوده رفقة زملائه في التعليم حال دون ذلك ، وجو هذه المنطقة المزاجية مزعج ، مرة باردة تصطك لها الأسنان ، ومرة حارة كأنما على فوهة بركان ، وفي أحيان أخر غبار يغزوها كسرب من الجراد يغطيها...

******

يتهامسان منذ الصباح ، مما بدأت همساتهم وضحكاتهم تستفزها ، متعمدين إغاظتها إلا أنها سرعان ما تعود لطبيعتها بعد أن تذكره فلا يفلحن بإزعاجها. فهاهي تتفوق على الجميع كعادتها بحيازتها المرتبة الأولى دائما في قسمها ، وفي شعبتها ، وفي المؤسسة أيضا.. لعل هذا ما سمح لوالدها بالسماح لها بمواصلة دراستها ، رغم أنه لا يظهر لها ذلك بعد أن يمتدحها جيرانها بحسد أمامه ممتعضين على أولادهم وبناتهم ، وإن لم يكونوا بذلك السوء..

_ اليوم آخر أيام الفصل الدراسي الأول ، لا أصدق أنه انتهى بهذه السرعة. انتهى ولم توقعي بينهما ، أرى كل يوم نظراتهما تزداد تعلقا بتلك العيون المتعطشة للوصال ، رغم محاولتهما الفاشلة في إخفاء ذلك.

نظرت إلى عروبة بحقد ثم نظرت إلى صديقتها بثقة؛

_ما تزال هناك أيام لاحقة ، فلتفرح قليلا ، لأنها ستبكي كثيرا..

وراحت تسرح مع إبليسها لتدبر خطة جهنمية تفصل بين هذين الاثنين وتنال منه لنفسها. وما هي إلا ثوان حتى ارتسمت على وجهها ابتسامة خبيثة ، تنظر لـ« عروبة » مجددا؛

_ لقد وجدتها.

_ما الذي تتهامسان به منذ ابتداء الحصة أنتما الاثنتان؟ هذا التصرف السيئ لن أراه مجددا في حصتي ، وعقابا لكما سأفصل كل واحدة منكما لتجلس في مكان مخالف في الفصل الثاني...

كان غاضبا ينتهر« فتون » وزميلتها ، اللتان كانتا تحاولان إقناعه أن يعدل عن تلك العقوبة ، لكنه لم يرجع في قراره. يجاهد نفسه كي لا يميل إليها فتتغلب عليه دقات قلبه المسرعة كحصان جامح ، لكنها لا تنظر إليه ، كعادتها عقلها كان بمكان آخر، فيزداد انزعاجا أكثر وتبرز عيناه الزرق الحمراوات كوجهه ، يصب جام غضبه على نفسه ، معاتبا لها.

_ستكتبون لي فقرة عن مخططاتكم في العطلة..

قاطعته « فتون »:

_أرغب في الذهاب إلى « بجاية » يقال أنها جوهرة إفريقيا ، أود أن أرى ذلك..

_رحلة موفقة.

_ ألا ترين أن « تيزي وزو » أجمل.. هاه؟.

تسأل صاحبتها وتلك الأخرى تومئ لها لتلفت انتباهه ، تبتسم له ، وهو غير مبال بها متجاهلا إياهما ، يشيح بنظره ناحية « عروبة »؛

لست كما سبق ، كنتِ تنظرين إلي دائما؟ وأنا ما دخلي ، ما همي بأمرها... لكن لا ، ركز على نفسك فقط.

يتكلم مع نفسه وبدأ يسري التوتر إليه ببطء. لا أحد كان يعلم حجم الحزن الذي كانت تشعر به وهي تحسب في الأيام بأصابعها التي ستمر دون أن تراه ، وقاطعها بصوته المتوتر:

_ « شامخ » أعيدي ما كنت أقوله منذ قليل..

تتسمر مكانها لا تقوى على النظر، فتلجأ للنظر إلى اللوحة بالجدار ، لعلها تجد ما كان يتحدث عنه ، يحدق الجميع بها يحاولون إخفاء ضحكاتهم الساخرة ، ينتظرون متى يحرجها أستاذهم كسابق ما عهدوا..

_لا تملكين إجابة؟.

يسألها بهدوء ، فنظرت إليه بخوف تومئ بالنفي.

_قلت اكتبي عن مخططاتك في العطلة. ركزي معنا ولا تذهبي بعقلك بعيدا...

اندهش الكل من أسلوبه الهادئ في الحديث معها ، وهي أحست بسكينة وراحة لا توصف تتربع في قلبها.

_ ابدؤوا بالكتابة ، أريدها جاهزة قبل انتهاء الدرس. إذا احتجتم لمساعدة أخبروني...

بدأ الجميع يشحذ الهمة ليكتب مخططاته ، أما هي فلازالت تنظر إليه بعد أن كلمها بذلك العطف والهدوء ، يبتسم معها فتبادله نفس الابتسامة كطفلة صغيرة مدللة ، تحاول أن تجمع شتات أفكارها لتجد ما تكتبه عما تكبته ، لكن ، كل كلماتها لم تدرك الذي يجول في خاطرها فتحسن الوصف..

يساعد التلاميذ ويطوف بالصفوف ، تتبعه بطرفها حزينة سعيدة في آن واحد ، تستلهم منهما لتعبر به ، تخط دون توقف ، وإذا ما ضاعت منها كلمة سارعت لتنظر إليه فتتذكر بسرعة ما كانت تود كتابته. يبكي يتراقص ذلك القلم على ورقتها بفرحة لا توصف بالكلمات.. إحساس لا يدركه غير ذلك الذي وجد أخيرا هدفا ليعيش من أجله ، فسحة أمل بعد سنين من الضياع. يقف في آخر الصفوف يراقبها عن كثب ، لم تكن تقوى على الالتفات لكن كانت تراه يتوهج في اللوحة بالجدار ، وفي كل مكان.. لا أحد يعي حجم تلك السعادة حين تتشارك الهواء نفسه مع من تحب ، فتكون أنفاسه أكسجينك الذي ستختنق بدونه ، يقترب منها بهدوء ليقرأ ما كتبته ، فيندهش ويدق قلبه بسرعة ، وما إن أحست بأنفاسه قريبة منها حتى أخفت الورقة ، وبدأت ترتجف يداها وجسمها كله. هزت « فتون » بصوتها المزعج ذلك الحبل الذي يشتد يوما بعد يوم بينهما بقوة ، ببغض وبحقد...

_لقد أنهيت الفقرة يا أستاذ.

يتنهد ويسير نحو مكتبه ، ليستلم ورقة « فتون » بتوتر. يحاول التركيز على ما كتبته لكن لا يوفق فكلمات « عروبة » تتردد في عقله ، عذبة تنساب إلى روحه المتوترة فتهدأ ، تنتقيها فتصيب بها قلوبا كالحجارة تتفتت..

أنيقة هي ألفاظها كما هي أخلاقها...

يبتسم فتحسبه لأجل ما كتبته فتبتسم له ، وتنظر لـ« عروبة »؛

لا تزالان تنظران إلي تلك العينان اللتان تقدحان شرا ، اخسئي ، اخسئي. كيف يبتسم لكِ هكذا؟ هل أعجبه ما كتبتِ؟؟؟ لا ، لا... أكيد أنا من ستعجبه فقرتي ، ربما لا تعجبه.

وأخذت تنظر لورقتها بحزن...

******

_انتظري.

تتوقف مرتبكة مشيتها.

_هاته ليست الورقة التي كنتِ تكتبينها.

تغمض عينيها وترتعش شفتيها ، محدثة نفسها.

أكان يقرأها ولم أنتبه لذلك؟ لا ، يا إلهي أتمنى أن أكون مخطئة...

التفتت إليه ، وعينيها في الأرض ، يتأمل في الخالة الملقاة على خدها وذلك النمش المرشوش فوق وجنتيها قد زادها جمالا رغم تلك الكدمات الخفيفة اللتان أدركتها عيناه ولطالما كان يراها ، ويأخذه الفضول لمعرفة سببها.

_لماذا أعطيتني ورقة مخالفة؟.

زاد ارتباكها هذه المرة ، مما اهتز له جسدها ترتعد شفتاها من الخوف أكثر من ذي قبل ، يضرب قلبها بقوة ، فتعصر يديها كحل لتهرب من توترها لكنها عبثا تحاول...

_ ماذا؟.

_ هذه هي..

_ مممم ، مصرّة على إخفائها؟.

رفعت عيناها لتصطدم ببحر عيناه فيصيبها دواره ، فترتبك أكثر ، وتسقط نظراتها على الأرض فرارا...

_ لقد قرأت جلها ، فلا داع لتخفي عني.. أرى أنكِ لستِ من النوع الذي يخفي أو...

ارتجفت وقد انفجرت حمرة في وجهها ، تنظر إليه مما زاد ذوبانا فيها.

_ أو حتى الكذب ، ليس من طبعكِ حسب ما استنتجتُه...

طأطأت رأسها فرحة ، وسحبت حقيبتها ببطء لتأخذ منها تلك الورقة ، بالكاد تستطيع حملها لتقدمها له وتفر منه مهرولة باتجاه الباب ، يراقبها بعينيه بعدما ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة حتى اختفت.

_هاه!!.

تشهق ممسكة بناحية قلبها ، وتخرجان عينيها من الهلع:

_ماذا كان يقول لكِ؟.

لم تجد ما ترد به ، غير ريقها الذي تبلعه بحثا عن مخرج من ورطتها تلك:

_ انطقي.

_وأنـ... أنتِ ما شأنكِ؟!.

مستغربة من جوابها ، تدفعها بقوة ، وتحشرها إلى الجدار بجسدها الضخم ، كتلة من اللحم المليء بالشحوم ، تنظر إليها باشمئزاز وكراهية ..

_ابتعدي عني...

_لماذا شاب وسيم مثله ينظر إلى سخيفة مثلكِ؟ ما لذي وجده فيكِ؟؟؟.

_عن ماذا تتحدثين؟.

وادعت أنها لا تعرف شيئا ، ولا تزال تحاول أن تفتك منها.

_ هيا يا « فتون » دعيها وشأنها سيخرج الأستاذ الآن وسيراكما ، هل أصابكِ الجنون أم ماذا؟؟.

_اسكتي.

تنظر إليها قليلا كمن يتوعدها بشيء ما وتغادر. تحاول أن تسترجع نفسها ، وقد أحست برغبة في البكاء ، بالصراخ في ذلك الرواق الذي ما عاد يعج بالتلاميذ. وقد همت بالمسير:

_ « شامخ »..

تنظر خلفها بعد أن زال عنها توترها لسماعها صوته ، واقف عند الباب يضع يده في جيب سرواله ، كان الوحيد القادر على إماطة الأذى عن قلبها ، وإزاحة الهموم عن عاتقها.

يلمح ذلك الارتباك الشديد ، والانزعاج البادي عليها:

_لماذا ترتعدين؟ أنتِ متوترة على الدوام يا « شامخ ».

وقد أطلق ابتسامة خفيفة ، وهي كالخرساء تحاول أن تنطق وتعبر دون ملل أو توقف ، لكنها تصطدم بجدار الخوف ، كطفل صغير يتعلم النطق ، ترفع رأسها لتجيبه بعد أن جمعت شجاعتها ، لكن تهزم نظراته جيش الكلمات الذي جهزته ، فتخر عيناها سجدا في محراب ابتسامته..

وانفجرت وجنتيها وردا أحمر قاني ، تلك الحمرة التي تذيبه إذا ما رآها:

لماذا الكلمات العربية وسط الفقرة؟.

_ألا يتفاهمان؟.

بصوت هادئ ناعم أجابته.

_ماذا؟!.

وضحك كأنما برز الدر من فمه ، يلمع في ثغره المتبسم ، وخجلها المتزايد واحمرارها زاد من ارتباكه ، فلم يجد ما يخفيه به ، فهمَّ واضعا يده على فمه ، تكاد عروقه تقفز منها ، يلمع شعره الذهبي عليها. وساد الصمت ، صمت تمنت بعده لو يتوقف الزمن ، كانت تريد الهرب ، في عينيه ، تفتش عن شيء ما داخله. عن الأمان والحب ، عن السكينة التي لم تشعر بها إلا معه. تنهد تنهيدا مطولا:

_برغم هذا لقد أعجبتني. كانت من روائع ما قرأت.

ابتسمت لما سمعته ، وغمرتها فرحة عارمة ، تنظر إليه غير مصدقة ما تسمع ، فعيناه كانتا تعبقان بالحنان ، العطف والمودة ، أمواجها ساكنة على غير العادة ، يسرحان ببعض. وقطع متعتها بالنظر إليه زفير قوي له ارتعدت منه مفاصلها ، فلم تجد حلا يخرجها من هذا الموقف غير الهرب... الهرب؟ نعم ، بعيدا أين لن تجده ، فتجده. أين لا تسمع صراخ والدها وشتائم أخوها ، فقط صوته يحتضن براءتها التي تكاد تفقدها ، وسط دوامة المآسي التي تبلعها يوما بعد يوم...

_ لا تذهبي...

كان مستغربا عن سبب هروبها الدائم ، بدل أن تكون ككل البنات ترغب في ساعات معه ، الأمر الذي زاد تعلقه بها. في نفس الوقت اجتاحه شعور غريب لا يوصف.

وغير بعيد تضرب الأرض بقدميها بقوة ، حنقا دفينا خرج ليظهر على وجهها ، الذي اصفر كما الليمون ، تحاول تهدئتها صاحبتها لكن بلا جدوى..

_كيف يتحدث إليها بهذه الابتسامة العريضة ، ألم يكن يعاملها قبلا بجفاء واحتقار؟! ما لذي تغير؟ ألا يملان النظر لبعضهما هكذا بكل شغف ، يكاد يأكلها بعينيه.

تضرب ، وتضرب بقدمها الأرض بهستيرية ، غير متوقفة.

رفعت رأسها وتوقفت متراجعة للخلف عدة خطوات ، فإذا بها كأنها أمام ثور جامح ، تحاول عرقلتها لكنها تهرب منها مسرعة تتحدث مع نفسها:

_لماذا أهرب منها؟!.

تتوقف عن الركض ، وخففت خطواتها ، مكملة طريقها بهدوء...

لا تسع الكون فرحتها ، تحتضن بين يديها كتابا تشده نحو صدرها بقوة كلما شدها الحنين إليه ، تفكر فيه وبتلك الرسالة ، بتنهدات قوية تقطع قوافل العبارات نحو لسانها..

« ... كانت تسير تائهة الفؤاد ، تهمس له بحزن؛

كما بدأت ستعود كئيبة ، ستشغلني همومي وغيري تشغله رحلات الاستجمام ، يقضي على متاعب فصل كامل من الدراسة بنسمة بحر.

ياه.. قد مرت أربع شهور برمش العين ، لازلت أنا ، هي أنا ، يرعبني صراخ أبي المتواصل ، ونظرات أخي القاتلة المبغضة لي منذ نعومة أظفاري.. ينبذني الجميع ، وتبتر لحظات أنيني نظرة من أمي تجعلني أجمع شتاتي وأجري نحوها ، أني بخير ، أني قوية لا أُهزم ، فلا تقلقي.

كنت أكذب فسامحيني ، كنت أخدعك وأنت كنتِ تعلمين و تتظاهرين بالتصديق.. إلّا اليوم ، فأنا وجدت روحا مني ، لكن الفرق ، يضعون لها اعتبارا وأنا لا.. لا يهم ، إنه يشبهني ، هش مثلي ، يدعي الكبرياء كما أبرع في ادعاء القوة وسرعان ما تكسرنا نظرة ، تذيبنا عَبرة ، تجمعنا دقات قلبنا الواحد.. إنه مني و يرفض ، ارتباكه أمامي يعترف عنه.. تبتلع الأيام بوجوده كل يوم مرٍّ مرّ علي...

_هاي، أنتِ.

التفَّت إليه كعادتها بلهفة ، كان يدرك ذلك لكن كان شيء ما يعيق حركتها ، يشل تفكيرها ، فتتسارع بوجوده أنفاسها. واقفا يحمل كتابا صغيرا في يديه ، يدنو منها وهي تبتعد ، صوت داخلها كان يقول لا تبتعدي ولكنها لا تسمع؛ كل الذي حولي هادئ. إلا قلبي يضرب بقوة ، فيدفع صدري للأمام يريد تمزيقه فلا أقوى على مقاومته...

_ « شامخ »؟.

أخذ يلوح بيده ليجذب انتباهها ، مبتسما فتصحو على ضحكته الساحرة ترن في أذنها؛

_تفضلي.

نظرت إليه ، فإذا به كتاب ، ففتحت عينيها كأنها تسأله هل هو لها.

_ إنها رواية ، اقرئيها في العطلة لتتسلي بها قليلا ، ولا تنسي أن تضعي ملخصا لها. ستعجبكِ.

تسرح فيه وهو يتحدث ويشرح ما عليها القيام به. لم تكن تسمعه ، بقدر ما كانت تجول في عينيه مسرورة الخاطر ، كيف لا تسر وتلك كانت أول هدية تتلقاها في حياتها.

هل السماء تمطر؟! لا ، يا لي من غبية نحن في الرواق. لكن ، آه... أشعر برغبة عظيمة في الصراخ ، تضايقني هاته الكلمات في صدري ، أرغبُ فِـ...

_أنتِ تبكين؟.

وقف متجمدا ، واضح من نظراته أن الدموع تضعفه.

تلك دموعي؟! لماذا أبكي؟ توقفي يا « عروبة ».

مسحتها وسارعت لتخفي وجهها عنه ، لا يزال واقفا مندهشا.

لابد أنه يقول عني عربية غبية.. معه حق ، فأنا كذلك حمقاء ، هل كان يجب أن تسقطي الآن ، نعم ، لا. أخ ، ماذا سأجيبه ، هربت مني الكلمات.

_ « شامخ » ، لا تبكي إنه مجرد كتاب. التفتي نحوي هيا ، شامخ؟.

_هذه لي؟!.

كان يعيد ويكرر بنعم وهي تعيد نفس السؤال له ، كانت سعيدة غير مصدقة ، يبتسم قائلا:

_ فقط لأيام العطلة ، فلا تطمعي بامتلاكه.

ارتبكت كطفلة بريئة؛

_ حسبته هديَّـ...

_ كنت أمازحكِ لا غير ، فعلا هو ملكك من اليوم..ضحكت ضحكتها الطفولية وعانقت كتابه بلا وعي ثم شهقت باكية تخنقها دموعها.. دموعها التي غسلت كل بقعة سوداء في قلبه ، أين سرقت جزءا منه واستقرت داخله ، يتأملها بصمت وحب. وافترقا في ذلك المساء البارد وترك كل منهما انطباعا لا ينسى في قلب الآخر ، بل لم يفترقا أبدا... غادرها في صراع بين ذاته العنصرية التي تحتقر كل ما هو عربي ، وقلبه الذي استحوذت عليه بعفويتها وبراءتها ، وقد دق لأول مرة بغرابة أوجست في نفسه خيفة... ».

******

_الكلمات في العنوان لم أفهمها ما العمل؟ أحتاج لقاموس ، من دونه لن أفهم الرواية. آه يا إلهي ما العمل الآن؟.

بدأ اليأس يدخل قلبها الصغير ، تتحسر حزنا من أين ستحصل عليه! وكيف ستقابله بعد العطلة وهي لن تقدم له ملخصا عنها. بقيت على هذا الحال تفكر وتفكر ، حتى أحست بظل يضرب في ثوبها ، لم تتمالك نفسها فقفزت من سريرها ليسقط منها الكتاب على الأرض ، تنظر إليه وقد تجمد الدم في عروقها ،ولم تعد تقوى على الحراك.. نظر للكتاب وإلى وجهها المرعوب ، وانقض عليها في تلك الليلة...

*****

الحلم الأخرس

وسط تلك الأماكن التي تعرت وتجردت من ثوبها الأخضر الزاهي لتلتحف بالأبيض ، تقبع سيارة مرسيدس سوداء ، وفيها يجلس متأملا السماء الشاحبة ، ويسرح في خياله.

_ لقد سبق الثلج أوان هطوله ، عجول جدا هذه السنة.

« أمازيغ »؟.

يتلفت بسرعة ، هلعا:

_ نعم؟ آسف « يوبـــــا » لم أسمع قولك فهلا أعدت؟.

_ هممم ، لم تسمع قولي إذن ، هممم..

يدلك ذقنه بيديه ، بعيون ساخرة. وينفجر ضاحكا:

_ أنت مجنون؟ أوقف هذه الضحكة المزعجة ، قلت لك مرارا أنها تشبه غوار التيوس. ترعبني يا رجل ، أفٍ منك أووف.

يشيح ببصره مرة أخرى في السماء ، والتي يبدو أنها عما قريب ستُساقط آلامها عليهم بكآبة وبرودة ، بعد أن سرقت بهاء الصبح ليحل عليه مساء مفاجئ معتم كما هو حال بعض القلوب. يتذكر أيام الخريف ، فتخترق ذاكرته المشوشة الملاك عروبة ، تاركا صاحبه يتحدث ويتحدث ، فلم يعد يسمع شيئا. لا شيء ، غير صوتها ومحياها بعيون اللوز الفاتنة.

وخلف أشجار الزيتون العارية ، المكسوة بالثلج تئن من لسعات البرد تشكيها للمارين عليها ، ومن سيهتم غير الذي ذاق لسعاتها، يمشي في ذلك الطريق بعد أن ترجلا من السيارة ، تهوي قدماه في قلب الثلج فيطبع عليها أثره مغادرا باتجاه منزلهم ، فتعود به الذاكرة إلى أيام الفصل السابق المودعة ، أين كان يحمل فأسه فينهال على الحطب بكل قوة ليشطره نصفين ، تجهيزا لمئونة الشتاء.. هكذا حياته التي لم يكن يبدو عليها الشقاء ، والحرمان الذي ينهشه من كل مكان...

التفت يمينا وشمالا ، والى الجبال الشامخة أين يقبع بيته ، يصب أنفاسه التي تهوي على الهواء فتحيله غيمة ، سرعان ما تمتزج بالمكان بعد أن تجمدت مفاصله خلف طبقات من الثياب يحتمون من أنياب البرد طيلة هذا الفصل.. يستقبله والده عند الباب بفرحة عارمة تقفز من عينيه ، يحييه بلهجته الأمازيغية فيفتح له ذراعيه معانقا إياه بعد غياب ، طويل؟ ربما. لكنه كان يرى في بعاد ابنه اليوم بألف ، فالأسبوع كان قرونا بالنسبة له. ولو لم يخترعوا تلك الهواتف النقالة التي تقرب البشر من بعض لجن جنونه أكيد:

_ كيف حالك يا بطل؟ تعال إلى حضن أبيك.

يربت على كتفيه بقوة ، ويضمه إلى صدره بشدة ليطبع على جبينه قبلة طويلة. كان يشم فيه ريح أمه التي أحبها بصدق ، يدخل للبيت فيحس بالدفء ، يستقبله إخوته من أبيه وزوجة أبيه ، التي كانت لا تطيقه لكنها ستدعي حبها

والشوق ، لأجل أن تكسب قلب زوجها.. يمازح أبيه وتارة إخوته:

_هل تأكل من جسدك يا رجل؟! لقد امتصت تلك المنطقة بهاءك يا ولدي ، أنظر إلى حالك.

فيجيبه « أمازيغ » ضاحكا؛

_ لماذا؟

_منذ أسبوعين كنت نوعا ما بخير ، أراك اليوم ازددت نحافة ، وشحب وجهك. وتلك الطبقات الرمادية تحت عيونك ، ما سببها؟ لا تجهد نفسك كثيرا فصحتك قبل أي شيء آخر.

اكتفى بضحكاته التي زينت البيت بعد أن كان كئيبا باردا كما الشتاء ، هكذا كان يراه والده. « أمازيغ » الابن البكر المدلل في عين أبيه ، الصغير وإن كبر. فمنذ أن خطفت الموت أمه « ثـَنِينَة » وهو ابن الأربع سنوات رعاه والده و أنشأه ولم يبخل عليه بشيء ، إلا ما بخل به القدر عنه.

_ أخبرني الحقيقة فأنا لست مرتاحا لهاته الحال التي وصلت إليها ، كيف كانت معاملة العرب لك؟.

_ لقد أخبرتك يا أبي ، أقسم لك أنهم أناس طيبين.

_ماذا؟!.

_نعم يا أبي ، هذا ما وجدته منهم ، هم مثلنا فيهم الصالحون ودون ذلك. ولو

وجدت فيهم غلظة كنت قلته ، ألا ترى أني أصدقك القول دائما؟؟ أم تشُـ...

_جيد! أنا لا أشكك في صدقك ، لكنني أخاف عليك.

وربت على ذراعه ، يهمهم مع نفسه.

_ اذهب إلى غرفتك ونم فأنت مرهق من السفر.

يقوم بجهد بالغ ، وهو يدلك رأس شقيقه الصغير بأصابعه ، ويحمل حقيبته بتثاقل...

_وأنتِ ، حضري له الغداء عندما يستيقظ يجده.

كان يستفزها بزمجرته عليها لأجل ولده ، وحبه الشديد له يخنقها ، تتمنى لو تدرك سببا واحدا تقنصه فتنشر العداوة بينهما ، عبثا. لم تفلح ولم تمسح لها الأقدار بذلك إلى حد تلك الساعة ، فقد كان هذا الحب قويا كجبال جرجرة التي لم تستطع قنابل الاحتلال إسقاطها...

******

لم تتوقف دموعها عن الانهمار كنهر جار ، تفكر في ردة فعل أستاذها إذا علم بأنها لم تستطع الحفاظ عليه.. تحدث نفسها بغضب بعدما طبعت على خدها الأيمن آثار صفعة على ذلك الوجه الشاحب ، وقد برد الدم في جسدها ،

تعاتب وتعاتب ، أن ما كان يجب أن تقبل منه الكتاب بعد أن ضيعته اليوم ، تلطم خديها بقوة:

_ يا حسرتاه يا « عروبة » ، يا تعيسة. أنتِ في مأزق حقيقي... وتنظر في الأفق. «... _ لماذا ترتعشين هكذا؟.

دنا نحوها ، وانحنى ليحمل الكتاب الذي سقط منها ، قد تسمرت مكانها. يقلبه ويفتش صفحاته ، كان واضحا أنه ليس بكتاب دراسي من حجمه الصغير وغلافه المرسوم عليه امرأة شبه عارية:

_لمن هذا؟.

صامتة لا تنطق ، كيف تقوى على الكلام بعد ما وقعت في ورطة مع أخوها العصبي شديد الغضب. ساد سكون رهيب قبل أن يطبق عليها ويشدها من شعرها بقوة..

_آه ، شعري...

تراقص لسانها في تلك الثانية مسيطرا عليها الخوف يرعش شفتاها؛

_مالك لا تنطقين؟ هل ابتلعتِ لسانكِ؟ هذا ليس كتاب دراسي ، وعليه امرأة سافرة يا كلبة ، تفوه. أقسم لكِ إن لم تجيبي لأقطعن لسانكِ. انطقي...

يدفعها بقوة على سريرها ، فتمسح ذلك البصاق النتن الرائحة الذي ألقاه على وجهها. ومازال يتعارك مع صفحاته عسى يجد شيئا ، يحرك رأسه كالمجنون ويصفعها على خدها ، فتصرخ وجعا ليشق صراخها الجدار ويمر للغرف

الأخرى ، موقظة والديها ، فيهرولان نحو غرفتها. يقف عند الباب وهو يراه ممسكا بشعرها يشدها بقوة محاولا خنقها ، فيجري لينقذها؛

_ماذا تفعل؟ ابتعد.

بصوت عالي مشحون بالغضب يكاد يلتهمه بعينيه المحمرتين ، يدفعه على حافة السرير ، فتشهق أمها وتفر إليها صارخة بابنها أن اتركها بالكاد تتحمل الوقوف... عن والد « عروبة » ، فقد كان وبرغم جبروته على ابنته ، لا يقوى أن ينظر لابنته تُضرب أمامه من أي كان.

_وجدت عند ابنتك هذا...

التقطه من يده يتفحصه بعينيه بعلامات الحيرة يسأله؛

_هذا كتاب ، ما لغريب في الأمر؟.

_نعم كتاب ، لكنه ليس الكتاب الدراسي وهذا من اشتراه لها؟ وانظر ، انظر إلى الغلاف يا أبي ، هل هذا كتاب للتدريس أم لتعليم الـ...

لم يدع لها مجالا لتشرح ، أو تفسر سبب وجوده عندها ، فقد تعودت منه أنَّ سوطه سباق لعقله. سحب حبلا كان معلقا ، وهي ترتعد خائفة تنهمر الدموع من عينيها ، تنظر لأمها تلك التي شحب وجهها فقد بدأ الإعصار ولن يوقفه أحد ، فكيف بامرأة هرمت مفاصلها إذا ضحكت اهتز جسدها الضعيف أن توقف رجلين ضخمين إذا ضرب أحدهما حائطا جعله دكا...

_ إنَّـ ، إإإ ، إنـَّهُ كتاب استعرته من المكتـ...

تختنق بعباراتها قبل أن تتم حرفا أو اثنين ، لكن لهم آذانا صما وقلوبا غلفا ، ولن يعرفوا في حياتهم غير العصا..

فهذا هو الجاهل إن تعطه كتابا ، يحرقه ويشعل به سيجارته ، ثم يلطم خده يندب الجهل..

*****

يمشي في الشارع الطويل على جانبيه تتربع بيوت متفاوتة البناء ، ومتباعدة المسافات ، يتأمل الجبل البعيد الذي اكتسى بالبياض كله.. بلغته الأمازيغية يشدو بأغنيته المفضلة.

_ أَيْعَسَاسْنْزَّهْرِيوْ...

_كيف وجدت نفسك هناك؟.

ينظر إليه ثم يرجع البصر ناحية الجبل ، ويتنهد قليلا.

_« ديهية » تطلَّقت..

توقف عن المشي ، وأطلق تنهيدا أطول من ذي قبل ، فارتسم نفسه في ذلك الجو العليل:

_لا يهمني أمرها ، فلم تعد تعنيني ، ولا أود سماع أي شيء عنها..

وقطب حاجبيه ، فقد كان يبدو عليه الضياع والشرود ، مما بعث الحيرة في قلب صديقه « يوبا »:

_لا تبدو بخير ، ماذا بك؟! لم تكن هكذا. كنت كلما حدثتك عن أخبارها

يهرول قلبك باتجاه عينيك فرحا ، لتدرك من أخبارها ما تستلذ به نفسك المتعطشة لوصالها... هل نسيتها؟ وأنت الذي تشهد لك الأودية والجبال وسفوحها عشقك لها!.

_ صدقا أنا بخير ،.فاطمئن. أما هي فلم تعد تعني لي شيئا ، لم يعد قلبي يشتهيهـــ...

_ ألا تريد أن تعرف ماذا قالت لي لأخبرك به؟.

أكمل سيره في ذلك الطريق البارد ، لتبدأ حبات البرد تهطل بغزارة فسارعوا إلى أحد البيوت القريبة واحتموا بها ريثما يتوقف ، كان واقفا يدفئ يديه بأنفاسه وازرقت شفتاه من شدة البرْد القارص ، وأما صديقه لا زال مصدوما.

_وكيف كانت حياتك بالبادية؟.

وهو يضحك بشدة مما استفزه ، فنظر إليه نظرة برودة أوقفته عن الضحك:

_لم تُضحكني..

_ أصبحت مملا جدا هل انتقلت إليك العدوى؟؟؟ منذ جئت إلى هنا وأنت شارد مهموم كأنك تركت أطفالك هناك. ماذا...

_ وأنت أصبحت تثرثر كثيرا ، لهذه الدرجة بدوت غريبا ومتغيرا؟ أ..

_ نعم ، لقد تغيرت. أخبرني ما الذي يشغل بالك؟ ألست بصاحبك الصدوق حافظ سرك؟؟

نظر إليه ، يحاول دفع الكلمات من فمه لتزيح عنه ذلك الثقل الذي أصبح يكبس على صدره بقوة ، لكنها التصقت بفمه وأبت الخروج ، فاكتفى بحفظ ذلك الشعور داخله وعزم على التخلص منه ، ونسيان تلك الصبية.. يربت على ذراع صاحبه:

_ شكرا ، أعلم أنك لن تدخر جهدا لتكون بجانبي وتريحني ، لكن اطمئن فأنا لن أكرر إجابتي في كل مرة... « يوبا » ، أنا بخير.

وابتسم ابتسامة مبللة بالحزن ، ينظر للأفق... فتخطر بباله « عروبة » وهو يشاهد تلك الحبات تتساقط على الأرض الناصعة البياض ، كورقة يذرف عليها القلم دمعه ، ممتزجة أحاسيسه. يذكره كل شيء بها ، فتعود به موجة الذكريات كالبرق للفقرة التي كتبتها آخر مرة ورفضت إعطاءها له بادئ الأمر. فابتسم ومشى تقوده قدماه لا يدري إلى أين ، لتختلط بالثلج المتساقط ، يمشي غير مبال بشيء ، فكلماتها كانت تبعث الدفء في جسده ، تسكر عقله فيفقد القدرة على التركيز ، فتسلبه وعيه.

_ انتظر يا رجل. « أمازيغ »؟ سرح عقله مجددا! أخ يا صديقي أخشى أن يصدق الذي في بالي...

« ... قد تكون هذه المرة الأولى التي أكتب مخططا لعطلة. المرة الأولى؟ لا ، لكنها أولى المرات التي سأعترف فيها بكل شيء.

سأجري في تلك الطرقات العارية عن ثوبها الأخضر المعتاد ، بعدما تخلت عن حيائها لتهديها السماء ثوبا ككل عام تسترها به ، باحثة عن بيتنا. بيتنا الغير موجود أصلا ، لأن الذئب ابتلعه وأنا في غابة الأحلام أصنع له زهورا أزينه بها..

سأكون كاذبة إن قلت أن هناك عطلة ، فقد تعودت المدرسة أن تكذب و نحن البؤساء نصدق ، فالأشقياء ليس لهم عطلة... سأذهب إلى أرضك سأتعرف بك مجددا هناك ، أين ستكون أنت أنا وأنا أنت ، سأطالبك بالكتابة وسأكتفي بالقراءة.. ستكذب لترضيني ، وسأدعي أني صدقتك و أخدعك بابتسامة.

قد أشعر بالسعادة لأني كذبت ، وكتبت أحلامي على هاته الورقة ، لتقرأها ، لتمتدحني قليلا وتذمني كثيرا لأني قد أخطأت الكتابة ، وفقدت لغة التعبير وأنا أبحث عن كذبة أخرى أضيفها ، إلى أن تنتهي العطلة الوهمية ، فالبؤساء ليس لهم عطلة...

سأخبرك بالحقيقة ، لكن عندما أجد بيتنا ويكون الذئب كذبة أخرى عشتها وتزين أزهاري أرجاءه ، وتراني هناك أجري بلا توقف أصرخ بأعلى صوتي متى تنتهي العطلة... » .

_أين سرحت؟ أكلمك ولا ترد.

_ آه ، في الجبل..

_ماذا به؟.

ونظر إليه يتأمله؛

_نضرب به مثلا ، لكن لا أحد يعلم ما في داخله.

_أصبحت تقول شعرا.

وينفجر ضاحكا ، لعل وبرغم ضحكته المفزعة إلا أنه كان الوحيد الذي يريح « أمازيغ »؛

_أسرع يا « أمازيغ » أكاد أتجمد ، لنكمل في البيت...

لا يزال مشدود البصر إلى الجبل معلق القلب بها ، وابتسم كأنه ذكر أمرا.

_ أنتِ جبل ، فعلا أرغب بشدة في سماع قصتك...

******

فتحت عينيها بصعوبة ، تسمع أصواتا تنبعث في البيت ، تعارك الفراش لتقوم ، فكل عظمة من جسمها تئن بسبب الذي حصل بالأمس ، تنظر إلى الساعة بالجدار:

_العاشرة صباحا ! إنني لا أقوى على الحراك يا إلهي.. ترى كيف حالك اليوم؟.

ابتسمت ، وعادت لتركز على تلك الأصوات التي تعلو كلما اقتربت من مصدرها ، تركز جيدا. إنه صوت القرآن ، تنهدت وعادت لسريرها.

كالعادة يجتمع أخوها بأصحابه لتلاوة القرآن في البيت... اللسان يقطر بالإيمان و القلب مجوسي كافر ، لا لا. إبليس ملعون.

تنظر للسقف شاردة البصر تفتش بعقلها أي ذكرى سعيدة يمر بها يومها المشلول ، ينقلها لمحطات مختلفة ، وقلبها يدق ويدق. تحسبه سيتوقف:

_هل سأبقى سجينة هذا البيت الظالم أهله؟! وهل ستبقى شجاعتي مربوطة بآخر حلقي؟ أتقلب على هذا السرير كالمعاق المنفي ، يرمقني الجاهل بعلو ، ينتقدني السفيه ببلاغة مبتورة ، ويعلو علي المتعجرف المتعال؟.

آخ كم أنا عاثرة حظ ، وما أشد ظلمهم وسوطهم إذا وقعوا علي... تخنقني دموعي ، تضعفني حين أطلب القوة. فلماذا ، لماذا؟.

وتجهش بالبكاء ، إذا خنقتها الدموع رأيتها تضرب بيديها على الوسادة ، لتفك نفسها من بثها الذي يمسك برقبتها دون رحمة... وإذا سكنت بعضا من الزمن ، زارتها ذكراه تخفف عنها ، إلا أنها سرعان ما تنفجر مجددا بحرقة ، لأنها لم تحافظ على الهدية ، تنظر إلى رزنامة الأيام ، فتشحب مجددا تتوجع بصمت.

******

أصوات القضم والهمهمة في وسط الأكل تثير القيء ، فأبوها يكاد يلتهم الطاولة بمن حولها ، وأخوها يكاد يفر الأكل من بين يديه ، كأنهم ضباع جائعة... تشعر بالاشمئزاز ، تفكر في حل يرجع لها كتاب أستاذها فقد حال بينها وشهيتها ، قلما تأكل. تسمع أصواتهم التي تزداد ، وتزداد. لم تعد تقوى على التحمل كأنما يجتمعون في أذنها ويأكلون ، تعزم القيام إلى غرفتها قبل أن تتقيأ ، فيوقفها والدها بغضب شديد:

_إلى أين؟.

_لقَـ ، لـــ...

_ انطقي.

_ ششبعت.

_اجلسي...

و أكمل يبتلع ذلك الأكل ، يقضم كضبع لم يأكل منذ سنة ، فجاءه جائع من يقاسمه إياه ، لم تجرؤ على إضافة كلمة أخرى وإلا سيقلب عليها الطاولة فيجعل عاليها سافلها ، وأخوها يرمقها بوحشية وقرف.. حملت لقمة لعلها تبتلعها ، ناظرة إلى أمها بوجهها الباسر، تنزل في حلقها كأنها جمرة حامية.

******

جالسة على كرسيها ، قد جهزت كتبها ودفاترها ، متمة بذلك جميع واجباتها الدراسية ، تحمل قلما وتشطب على رزنامة الأيام بابتسامة عريضة ، امتصت أيام العطلة سحرها فأصبحت شاحبة أكثر من ذي قبل... قامت ترتب ملابسها ومئزرها الذي ذكرها به ، فرحة لأنها اشتركت معه في بياضها وإن اختلفا في كثير من الأمور ، منهمكة بالترتيب غارقة في التفكير. وهي شاردة دخل عليها أخوها على غفلة منها يراقبها علّه يمسكها بالجرم ، فيكب رأسها على الأرض ويدوسه فيهنأ له البال. هو كذلك رآها أخذت حذائها لتلمعه:

_لم هذا التلميع كله!؟.

طأطأت رأسها ترد عليه بصوت خافت خائف:

_غدا العودة للدراسة..

_أعلم فلست غبي يا بهيمة ، تفوه. هل يتطلب هذا تلميعا؟ أم أنه لصاحبك؟؟؟.

تلك الجملة رجّت كيانها ، تتطاير عليها شرر عيونه اللتان تكادان تقفزان كحمم بركانية ، نكث ملابسها وفتح الخزانة ، يخرج كل ما فيها من ملابس ورماهم على الأرض يبحث عسى يجد شيئا ما ، لا شيء.. فيخرج وهو ينفض قميصه ، ويمسح على لحيته.

*****

الثلوج تغطي المكان ، وانتشر الناس يسعون في أرض الله الواسعة. إلى جانب الثانوية توقفت سيارة سوداء اللون بداخلها يجلس « أمازيغ » وأبوه يتبادلان أطراف الحديث قبل أن يذهب كل منهما في حال سبيله.

_لم يبق الكثير وستغادر من هنا.

يومئ برأسه موافقا على ما قال:

_تحدثت إلى أحد المسئولين في مديرية التربية ، قال أنه سيساعدك ليتم تثبيتك ونقلك إلى منطقتنا..

_أنا أتمنى ذلك.

_ثق بي يا بني ، أنت اصبر فقط. أعلم أنك لا تطيق البقاء ، وكما تعلم فلعرب يعاملوننا باحتقار و...

_لا ، غير صحيح فتلاميذي لا يعاملونني إلا بكرم وتواضع ، ربما..

ضرب على كتفه معقبا على كلامه بقليل من الغضب:

_ما تزال صغيرا ، عندما تكبر ستفهم.. اهتم بنفسك هيا..

« أمازيغ » ، يا بني؟ أين ذهب عقلك؟.

_أه!!.

ارتعش جسده منتبها له ، متوترا؛

_ماذا بك يا بني؟ أنت على ما يرام؟!.

_أنا بخير ، تذكرت أمرا علي القيام به ، فقط.

_وما هو هذا الأمر الذي يجعلك شاردا على الدوام؟ شاركني لعلي أساعدك.

لم يجد ما يجيبه به ، فسكت ولم ينطق بكلمة ، وترك والده متحيرا عليه أكثر.

_حسنا اذهب فليرعاك الرب.

_وأنت أيضا..

ترجل من السيارة ، يصفعه الريح البارد بقوة على خديه ، فيضع يده مسرعا ليغطي فمه من شدة البرد ، ينظر إلى والده مشيراً إليه بيده أن إلى لقاء قريب. ويمشي بتأني ، يفتش عنها في وجوه الفتيات العابسة...

وفي ذلك الشارع الطويل بلا منتهى ، على أديمه الذي اكتسى ببياض ناصع ، زُين بدببة ثلجية على حافة الشوارع ، بأشجار تجردت من ثيابها تعاكس الرياح.. كانت تطبع قبلات على الثلج بحذائها ، فتترك عطر صابونها الفواح الذي علق بثوبها منبعثا في كل ركن حلت به ، رآها فأسرع ناحيتها يمسك ذراعها بقوة ، فارتعدت ، واستدارت ، فإذا بسعادة تشق الطريق إلى قلبها المعتم فتنيره..

_متى عدت؟!.

قد احمرت وجنتيها خجلا ، وذلك الأنف الصغير الذي طبع الثلج قبلة عليه حتى صار كالبندورة الحمراء تفر الكلمات منها ، فلا تجد غير النظر والنظر دون ملل:

_اشتقتُ إليكِ..

تنظر إليه ، لا تزال على هذا الحال..

_ألن تقولي شيئا؟!.

يركز النظر في عيونها ، ويقترب منها رويدا ، رويدا:

_لماذا أنتِ صامتة ، تحدثي.. لا تتركيني هكذا متحيرا.

يد تلمسه من الخلف يلفت ليتفحص الأمر ، لا شيء. بدأ صراخ ينبعث بكل مكان ، ينظر أمامه بسرعة مُنصدم ، يحدق بها وهي تذوب مع ذلك الثلج ، فتسمر مكانه يحاول أن يستوعب ما الذي حدث لها يأخذها إلى حضنه كي لا تتلاشى وهي صامتة:

_ماذا بكِ؟! ما الذي حدث لكِ ، فلتجيبي.

وذلك الصراخ يتعالى ، تملأ المكان أنفاسها ، تلهث و تئن تمزق سمعه كسكين اخترق جسده. وإذا بغيمة ضخمة سوداء تبتلعها من بين يديه فيصرخ ، يمسك بها بقوة كي لا تفلت منه ، يصرخ ويرتجف...

_آه ، ها.. أين أنا ؟؟.

يتحكم في أنفاسه بصعوبة ، يتصبَّب منه العرق ، ينظر هنا وهناك..

_هذه ، كان مناما.

ينظر إلى الحاضرين بعدما أيقظهم وأفزعهم ، فيقْدُم إليه أحدهم يحاول أن يخفف من روعه ، يقدِّم له كأس ماء فيذهب ما به من فزع..

بدأت أنفاسه تهدأ قليلا ، شاكرا له فعله وكرمه. وبعد أن رجع الجميع ليكملوا نومتهم ، قام من مكانه يرفع تلك الستارة ليطل من النافذة والثلج يتساقط بكثافة قد غطى كل شيء.. يفكر في ذلك المنام المرعب ، يتساءل عن حال « عروبة ».

******

كانت تجر نظراتها لتفتش وتفتش. كمن ضيع شيئا ما ، تتقدم فتسبقها خطواتها ، تضرب في هذا وتلك.. تبطئ قليلا:

_اهدئي سـ...

كان يقف ويراقبها من بعيد بعيون تتراقصان فرحا ، تقفزان نحوها تتجاوز الجميع لتدركها وتستمتع بالنظر إليها ، لتروي القلب بعد شوق طويل ، يحدث نفسه:

_لماذا أهتم بكِ بهذه الطريقة الجنونية ، تفقدني رؤيتكِ ثباتي ، هدوئي ، وحتى عقلي الحكيم.

_يا راحتي بعد شقاء ، يا فرحتي بعد لقاك..

_لقائي بكِ الذي كان يزعجني بالأمس ، اليوم يريحني.. ما لذي يحدث لي بحق الإله؟!.

أين ذهبتِ؟؟.

ينظر فلا يجدها أمامه ، لتخرج من الغرفة أستاذة العلوم ، يتنهد بقوة وقد خلا

الرواق إلا هو ، فيدخل إلى القسم غائب الوعي ، غير مدرك لما يحدث له يسترجع المنام الذي رآه فتراوده أفكار سيئة ، لأول مرة تمر الساعة ثقيلة هكذا.

«... هاهو ذا ، أخيرا وجدتك..

تبتسم و تغادر ، تسألها أمها إذا نسيت شيئا ، تومئ فقط ، فلم يكن عقلها معها ، تطبع قبلة على خدها وتغادر مسرورة ، تجري نحو الباب بسرعة معانقة محفظتها. ولا تزال تعانقها في ذلك البرد وقد ازرقت يداها ، لا تحس له ولا غيره ، عقلها يسرح في تقاطيع وجه الأستاذ ، تفتش عن ألغاز فتحلها داخل ذاته الغامضة .. تبتسم في ذلك الشارع البارد محاولة بصعوبة إخفاءها بمحفظتها لكن عيناها كانت تفضحها ، لمحها والدها فارتجفت قدماها ، بدا وكأنما ابتسم ابتسامة خفية ، حسبته خيالها الواسع فلم تعره اهتماما ، فعقلها في هذا اليوم قد تبعثر ، وبرودته وتعامله الهادئ معها غير مطمئن:

_ادخلي..

مشيرا إلى الثانوية برأسه ، فتمشي بخطى متثاقلة وخوف ، تفكر ، وتنتظر فقط متى ينفجر فيها ويصرخ بهـا ، ولم تكمل كلامها حتى وضعت يدها على فمها:

_هل اكتشف...

******

الفرحة اليتيمة

ملل ، هدوء. هدوء وملل..

الجميع ينتظر الجرس بشوق ، وهو ينتظره بشوق أكبر.. كأن الدقائق الماكرة المتبقية تتعمد الإبطاء لتغتال صبره.. وذلك الجو الرمادي الكئيب خارجا يخنق الأنفاس. غاب قليلا عن هذا العالم البائس ، وإذا بصوت الجرس يجره من سرحانه ، وأخيرا رحم لهفته. يحمل حقيبته وهاتفه ويسرع متجها نحو الباب ، ينتظر حتى يغادر كل من في الغرفة فيراها بينهم ، انتظر وانتظر ، وفي كل بضع دقائق يسلم عليه أحد فيومئ فقط لهم بعقل شريد.

خرج الجميع إلا هي! و « فتون » تراقب من بعيد تأكلها الغيرة.. فجأة خطر بباله أنها تنتظره هناك ، فقرر الذهاب ليستطلع الأمر في قسمها ، يتساءل:

_ أين هي؟!.

مقطبا حاجبيه ، رافعا كتفيه قائلا:

_ لا يهمني ، لا أدري أين كنت أفكر حين فكرت بالمجيء إلى هنا. مشى بضع خطوات فتذكر ذلك المنام ، فخاف وارتعب لكنه لم يود أن يعطيه قيمة ، ومشى منهكا متجها نحو صالة الأساتذة ليحضر نفسه للساعة التي تليها. وإذ به يسمع صوت صراخ ، اقترب قليلا ، فقليلا ليحيط علما به..

_ إلى أين أنا ذاهب؟ وما همَّني بمشاكل العرب؟ فليذهبوا إلى الجحيـــ..

لم يكمل حديثه ، والتفت سريعا متسمرا مكانه شاخص البصر ، ودقات قلبه تزداد ضرباتها مع كل خطوة:

_هذا الصوت إنّـ..

وسارع ناحية النافذة ، كان يستطيع تمييز صوتها من بين الآلاف من الأصوات.

_ عروبة ؟!.

لمحها تبكي من خلف زجاج النافذة الغير واضح ، لكنه رآها ترتجف ، والضخم الملتحي يصرخ بوجهها ، من كان؟ لم يكن يفهم شيئا ، والمدير غاضب يرد عليه ، حمل نفسه بلا وعي مسرعا باتجاهها.

_ التزم الهدوء فأنت في مكان محترم يا سيد ، منذ قدومك إلى هنا وأنا أقول لك تحدث باحترام..

_ انطقي من أعطاكِ الكتاب ، هيا..

كانت ساكنة لا تقوى على الحديث ، متجمدة مكانها؛

_ كيف قمتي بسرقته من غرفتي؟.

وإذا بصوت « أمازيغ » يقطع كلامه ، ردفه شهقة « عروبة » ، تلك الشهقة البريئة المضطهدة ، كانت كافية لتزلزل العالم كله. تقدم ناحيته وقد رمى محفظته بغضب على المكتب بجانبه ودفعه قائلا:

_ هل من الرجولة أن تستقوي على امرأة أمام الجميع هكذا؟!

حيوان؟ لماذا ضربتها؟؟؟.

كان أول مرة يتكلم باللغة العربية ، كانت أحلى بكثير على لسانه ممتزجة بلكنته الأمازيغية ، يمسك بطرف معطف سعيد ناحية صدره ويجذبه إليه بغضب ، محاولا أن يفتك منه.

_ وأنت ما شأنك؟ ابتعد عني وإلا قتلتكَ...

رمقه بنظرات الحقد والقرف ، يتقدم المدير ومستشاره نحوهما بسرعة ليبعدوه عنه ، كان كوحش كاسر بعينيه المحمرتين ونظراته المرعبة كأنما تسونامي تضرب داخلهما وسيجرف الكل:

_ أستاذ « آيت هنّي » اهدأ أرجوك. ليس هكذا ، وأنت غادر فورا المؤسسة وإلا سوف نطلب الشرطة ، لقد تجاوزت حدك..

تركه ، ولا زالت نظراته شرسة صوبه ، نفخت أخوها كبالون ، وما هو إلا وخز واحد وينفجر ، ينظر إليها ، فتحتمي خلفه خائفة تبكي مما زادت الغيرة داخله اشتعالا بعد أن وجده شابا فتيا فائق الجمال ، فزاد حقده على أخته أكثر فأكثر:

_ تحتمين خلف الرجال إذن ، حسابكِ عسير لاحقا..

_ ما قصتك؟ « شامخ » فتاة مجتهدة ومحترمة لماذا تعاملها باحتقار هكذا؟.

يرفع رأسه وينفخ صدره ، ليزفر بقوة يلاعب لحيته ويفركها بأصابعه بقوة ، يميل رأسه يمينا وشمالا كمجنون ، يرد عليه المدير:

_ أستاذ « آيت هني » ، إنه يقول بأن أخته سرقت منه كتابا.

_ سرقت؟.

نظر إليها غير مصدق لما يسمع ، وهي التي ترتعد من نظرة ، تبكيها كلمة وإن كانت مدحا. كيف لرقيقة المشاعر مثلها أن تسرق.

_ وجدت عندها كتابا ، أنت أعطيتها إياه؟؟؟.

_ نعم ، أنا أعطيتها إياه ، ما المشكلة في ذلك؟.

_ وتقولين لنا من المكتبة؟! وهل تعطيها كتابا فاجرا من غلافه؟ هل هذه الأخلاق التي تعلمونها لتلاميذكم؟؟.

ينظر إلى أخته يود لو يقتلها ، يكلمها بغضب ويعضّ على شفته يكاد يمزقها بأسنانه. كان كسفاح دماء ، مثير للرهبة ، عيناه تقدحان شرا ، يقطع صوته الهادئ شر نظراته:

_ نعم ، هو فعلا من المكتبة أيها المدير. أعطيتهم ليقرؤوه في العطلة و يكتبوا ملخصا عنه. وأيضا الغلاف ليس بذلك السوء أبدا ، على عكس هذا...

وأختك لا تحتاج أن نعلمها الأخلاق فهي قمة في التربية..

_ هل رأيت أظن أنك سمعت وأخذت إجابة ، غادر فورا ، دائما تأتون بالمشاكل وتلقونها على هاته البنت المسكينة. والمرة القادمة لن أتسامح معكم وسأطلب الشرطة.

يحرك رأسه يمينا و شمالا كمن يرغب بقول شيء ، ويقبض على يده بشدة ، يود

لو يذبحها ويذبح هذا الأستاذ معها.

_ حسابكِ عسير، عسير والله.

_ أيها الحارس ، تعال اسحبه خارجا..

كانت نظراتـه لا تفارقهما معا ، وخـرج بعدها ، ليترك « أمازيغ » يتأمـل « عروبة » التي كانت شاحبة هزيلة يعلو وجهها الكدمات. لم تجد ماذا تفعل أو تقول فخرجت خلفه تجري ترتعد نحو الفناء ، تمسح دموعها حزينة مكسورة القلب ، وتلك هي المرة الأولى التي يحس بوجع « عروبة » ، والتي كانت جلدة في إخفاء معاناتها طوال تلك الأيام التي خلت ، متفوقة رغما عن الهموم والآلام. تركت في قلبه أثرا بالغا لا ينسى أبدا...

******

في غرفتها الكئيبة ، لم تعد ترى من هذا العالم إلا الموت ، والوجع. قد نالت منذ دقائق وافر الضرب والشتائم ، التي كسرت فيها كل ما هو بريء ، وأصبحت لا تفكر إلا بالانتقام لحالها.

الضرب ، ثم الضرب...

أصبح كالأكسجين في ذلك البيت لا يخلو البيت بدون أن تضرب عروبة.

كانت محطمة لا تصف حالها الكلمات ، تنهمر دموعها فتمسحها و تعاود

الانهيار أكثر وأكثر ، فأكثر. وهي على ذلك الحال حتى أخذها النوم. تلدغها الآلام في كل غفوة فتعاود الاستيقاظ ، فيجتاحها فراغ موحش.

تتنهد ، ثم تتقلب...

عسى تجد الراحة في الجانب الآخر ، فتعاودها مرارة الحياة نهشا بلا رحمة.

_ اطمئن قلبي حين سلمتك إياه ، أنا لست أهلا للهدايا. لم أكن أرغب بخسارة أول هدية لي ، لكن...

تسبق عباراتها دمعة من عيونها فتخرسها قليلا.

آسفة.

وتدفن رأسها في وسادتها ، وتئن بحرقة.

تعودوا على دخوله بالترحيب يبتسم ، لكن لم يكن هذا الصباح كسائر الأيام ، كان ضائعا بعيون حزينة غاضبة ، وقد قضى ليله ساهرا يفكر بـ« عروبة ». كان كل همه أن يواسيها ويقف معها:

_ ما لذي فعلتموه في العطلة؟.

بدأ الجميع يتحدثون في وقت واحد كما اعتاد أن يراهم ، فأوقفهم:

_ إذا تحدثتم فجميعا ، وإذا سكتم فجميعا؟ واحدا واحد ، ألم تتعلموا الانضباط بعد؟ أنتم كبار، وأصبحتم طلابا واعين ، لكم مستوى تحسدون عليه ، بالإضافة إلى هذا ما أنا بالأعمى..

بدأ الهدوء يغتال الفوضى ليحل الصمت عليهم ، بعد أن بدأ يحدد لهم أدوارهم

، منهمك يسمعهم ويصحح لهم أخطائهم ، يمشي نحوها بخطى ثابتة. يحاول استغلال شرودهم. كان واقفا بجانبها يتطلع إليها ، وقلبها لا يتوقف عن النبض بسرعة ، بسرعة وفرحة. تهرب منه لتخفي ما على وجهها من كدمات بيدها التي ترتجف مطأطئة رأسها ، يمازح التلاميذ ويضحك معهم ، يشاطرونه المزاح بعد أن زالت تلك الغشاوة بينهم أول مرة عرفوه بها ، فقد تغيرت ملامحه ، تصرفاته ومعاملته. وحالما تسنح له الفرصة يحاول أن يخطف نظرة قصيرة منها ، يود أن يطمئن على حالها لكنها لا ترفع رأسها. فكر قليلا وما هي إلا لحظات حتى قفزت فكرة في عقله. يدنو قليلا منها ، ليحمل قلمها ، مما وتَّرها قربه ، تتساءل عن سبب أخذ القلم ، كانت تعصر يديها خجلا ، حين دنا مجددا منها ليحمل دفترها متراجعا للخلف يحاول إخفاءه خلفه..

ابتسمت وهي تراه يرجع للخلف ، يحاول أن يكتب شيئا ما عليه بعد أن انهمك الكل بالكتابة ، ثم أعاده إليها ، ورجع ليساعد الآخرين على تكوين جمل صحيحة ، ويصحح لهم ما لبس عليهم. أخذت دفترها بسرعة وفتحته ، وما إن رأت ما كتبه لها حتى ابتسمت ، يراقبها بفرح بعد ما لاحظ تلك الكدمة ، أحس بانزعاج شديد وكمد تنَزَّل على قلبه. ساعدتها تلك الفكرة على التعبير بصمت دون أن تخونها الحروف وتهرب منها الكلمات ، يسترق النظر لما ستكتبه له:

_ أنا محرجة منك بشدة ، لأني لم أستطع الحفاظ على الكتـ...

خطف الدفتر منزعجا ، وكتب فيه شيئا وأعاده بغضب.

_ لا يهم الكتاب سأشتري غيره ، وليس بذلك القيمة... الذي يشغل بالي في هذا الوقت ، لماذا تسكتين على تلك المعاملة السيئة؟ لستِ حيوانا.. لعلي الآن فقط أدركت سبب تلك الكدمات على وجهكِ. وها هي كدمة أخرى أراها. وفهمت سبب ارتعابك وخوفك الدائم متأخرا... حزنت لأجلك حقا.

ابتسمت بعد أن قرأت رده ، فقد كان اهتمامه بها يذهب الوجع داخلها ، فالاهتمام لأوجاع الآخرين يخففها ، وبتقاسم همومك ومآسيك مع أحدهم ستدرك أن الحياة جميلة ، وإن كانت قاسية... أخذت قلمها لترد عما كتبه:

_ لسنا من نختار حياتنا ومن يسيرنا ، نحن مجبرون على معايشة هذا الواقع المر. وإذا خرجنا عن هذا الطريق ستأكلنا ألسنة البشر...

تنهد بحزن وغادر إلى مكتبه ، لا يفكر إلا فيها ، يحاول أن يجد ما يساعدها به...

******

على سريرها جالسة ، تشم ذلك المنديل ، وتحتضن دفترها.

تتذكر ، وتتذكر...

وما أكثرها الذكريات الجميلة معه ، تكاد تنسيها كل شيء سيء عايشته قبل أن تعرفه...

« ... لا تذهبي ، أحتاجكِ.

_ نعم.

هذا رقمي ، هاتفيني إذا عاملوكِ بسوء..

_ شكرا ، لكني لا أملك هاتفا.

فتح عينيه مندهشا ، في هذا الزمان حتى الهاتف ممنوع! ينظر إليها ، يخاطب نفسه؛

صدقا ، لا تستحق كل هذا الحرمان والمعاملة القاسية مهما أخطأت.

_ أنا مستغرب كيف تتحملين كل هذا؟!.

تنظر إليه ، لا تريد أن يمر الوقت.

_ هل ضربكِ البارحة؟ لأني أرى تلك الكدمة على وجهك ، تبدو حديثة فأنا لم أرها البارحة.

تتنهد بحزن ، تحاول أن تكتم غيظها ، لا تريد أن تذكرهم أمامه فتضيع منها ثانية في سبيل من لا يستحقون ، تريد فقط أن تكون بسلام إلى جواره..

_ لا داعي للإنكار ، لأنكِ لا تعرفين الكذب ، قلتها لكِ سابقا ، إضافة إلى هذا أنا لا أحبه..

نظرت إليه ، تخاطبه عينيها؛ وإن ضربوني لن أهتم لأنك إلى جانبي مهتم بي ، تسأل عني إذا ما غبت عنك ، هذه هي راحتي..

_ كيف نقول شكرا بالأمازيغية؟.

كان صوتها الناعم الحنون يُذهب عقله ، ويُوتره..

_ نعم؟.

_ أريد أن أشكرك بلغتك..

ابتسم ، وراح يتأملها:

_ ثَنْمِيرْثْ.

_ ثان...

_ مير.. ثْ. ثان ، مير ، ثْ..

تتعتع في الحروف وهو يبتسم ، في عينيه أسى واضح ، بصوته الهادئ:

_ اسمي « أمازيغ ».

تنظر إليه ، قد احمرت خجلا ، زادتها نظراته توترا حتى ارتعشت شفتيها ويداها ، بعدما عادت النضارة إلى وجهها الميت منذ بضع لحظات:

_ لا داعي لأن تتوتري ، ولا تخافي من أحد يا « عروبة » مادمتِ لم تخطئي.. حسناً ، هل تعدينني بذلك؟.

انهمرت من عينيها دموع واختنقت ، تمسحها بيديها ، فسارع ليسحب منديلا ويعطيها إياه ، متوتر هو الآخر ، يحس بالضعف لضعفها ، وخرّت قوته وكبرياؤه أمام دمعتها:

_ سسسـ ، أنا أرجوكِ ، لا تبكي مجددا.

تومئ له برأسها وهي تمسح دموعها ، يلتهم عينيها الساحرتين ويذوب في براءتها ، يتمتم بجملة أمازيغية ، فكانت تبدو كمن لا يفهم شيئا:

_ " سْعِيذْ أَلَّانْ تْسَحِرَنْتْ ".

_ ماذا تعني؟.

سأترجمها لكِ لاحقا ، لقد رن الجرس. علينا أن نذهب.

_ حسنا ، « أمازيغ ». اهتم بنفسك.

علت وجهه ابتسامة واسعة ، ينظر إليها بعينيه الساحرتين هو الآخر:

_ سأفعل إذا اهتممتِ بنفسكِ.

ضحكت فردّته أسيرا تائها ، وتنهد تنهيد عميق وغادر بسرعة ، تنظر إليه غير مصدقة ما يحدث...»

_ ثنميرث ، ثنميرث ، ثنميرث « أمازيغ »..

تحتضن الوسادة بعد أن عادت الروح إلى جسدها المهجور المتعب ، لا تفكر إلا بوجهه حتى تغفو بعمق. تغفو دون أن تفكر بالغد لأنه مهما كان سيئا ، مع الأرواح الطيبة سنكون بخير. هكذا كان اعتقادها ، مهما كان اختلافنا فإن قلوبنا تعيش بهدف واحد وإن أنكرنا هذا ، وإن الأيام ستظهر كل الحقيقة... أين كانت تتقلب يمينا وشمالا كان يتقلب شمالا ويمينا.

_ آخ يا « عروبة » ، كيف سوف أساعدكِ لتتخلصي من معاناتكِ؟.

أغمض عينيه يحاول أن ينام ، فتسقط ذكرى أول لقاء له بأخيها في رأسه الذي عج بالذكريات ، فينهض من سريره جالسا يعضُّ على شفته السفلى غضبا...

«... ولكن كيف تسمحون لهمجي كهذا بالدخول إلى هنا ، يعامل تلميذة بهذه الطريقة المهينة ، وأمامك سيدي المدير!! هل ترضى بهذا؟!

_اسمع سيد « آيت هني » أود أن أنصحك نصيحة ، ليست قصة أني لا أرضى ، فأكيد لا أحد يرضى بهكذا معاملة. لكن هذه العائلة لا تفهم في الاحترام وقاسية تعاملاتهم مع الآخرين بخشونة وأخوها بالذات ، لا تقترب منه.. معروفين في المنطقة بتعصبهم للدين و العنصرية..

_ عنصرية؟؟؟.

شعر بالأسف لحال تلك الفتاة ، ربما لم يستغرب العنصرية والتعصب للدين لأنه كان قبل أن يتعايش مع « عروبة » ، عنصريا وحانقا بغير وجه حق على جميع من لا يضع لهم اعتبارا من بني العرب ، بعد أن أدرك أن التعايش مع الآخرين يجعلك تتأكد قبل إصدار أحكام مجحفة بحقه ، فأغلب الأخبار تنقل لنية خبيثة في صاحبها ، تزيد العداوة بلا سبب أو الحكم المسبق الظالم ، كما حدث معه...

_سأزيدك أمرا ، فأنت تبدو إنسانا طيبا وذا حق ، لا تخالطهم مهما حدث ، لأننا جربنا قبلك وكانت العقوبة على تلك الفتاة المضطهدة فقط ، فهي وحدها من ستدفع ثمن كل شيء ، لهذا احترس... ».

يعود ليتوسد حيرته ، يفكر ويفكر بحلول تكون نافعة لا ضارة على تلك المسكينة...

******

الثلج متناثر هنا وهناك ، والرياح تئن ، كلما تزايد أنينها اشتدت الثلوج بالهطول ، كأنما في منافسة لمن النصر. والمنتصر يحمل الآخر فيفسحه في الأرجاء... وفي أحد أركان القرية ، غير بعيد من مقر البلدية على أحد جدرانها المتهدم ، يحتمي أحدهم قد عزف اصطكاك أسنانه مع أنفاسه لحن المعاناة ، لحن الظلم في زمن القوة للمنتصر ، وأي منتصر ظالم آخر يضاف لقائمة العظماء بغير حق ، والضعيف يأكله الباطل ويحتضنه الشارع.. في زمن النعيم للخائن والجحيم لحافظ الأمانة. في هاته القرية الباردة ببرودة قلوب أهلها ، وقلة منهم يجوب الشوارع بحثا عنه ، لأخذه معه أين الدفء ويتقاسم معه ما أنعم عليه به الله ، فيرجع لبيته خائبا مرفوعا عند ربه بكثير من الحزن الذي يعتصر قلبه ، وما يشفق على البائس إلا بائس مثله ، كذلك المجانين.

هناك يرتعد تحت ذلك الجدار الحنون يربت عليه ليتدفأ ، يتحدث إلى نفسه بفمه المزرق ويديه المتجمدتين ، أحدهم قد تنعم عليه بمعطف مستعمل ليقيه برد الشتاء. لكن ، من يقي قلبه من المرارة التي فيه؟.

« ... كان لا يسلم منه حتى في الحمام ، يجري خلفه كأنه عدو له ، جري الضباع خلف طرائدها ، لا يدخر جهدا لينزل عليه جام غضبه ، إذا هرب منه إلى ثانويته. ذلك المكان الوحيد الذي يجد راحته فيه ، إذا لحقه إلى هناك أو كان يومه أسوداً ، فلا يسلم من أبيه إلا وقد جلده حتى تخور قواه ويستسلم لفرصة أخرى سانحة. ترى لماذا كل هذا الحقد على الأولاد؟! القسوة عليهم باسم المصلحة لهم؟ قد اسودت أكبادهم عليهم؟ تجد جملة واحدة تتراقص على ألسنتهم: قال الله تعالى { وبالوالدين إحسانا } . هل الإحسان يلد الإحسان أم الباطل؟! وماذا لو اخترنا معهم طريق الحسنى لقلوبهم المرهفة ، ماذا سيخسرون؟.

_ « عقيل » ، يا « عقيل »..

أين أنت أيها الحيوان الناطق؟ سأقتلك اليوم ، سأقتلك.. لقد أصبح هذا الفتى متجبرًا على من رباه ، تلك المدرسة تعلمهم عقوق والديهم ، تفوه. سوف يكون آخر عام لك فيها ، بل ستعمل معي وسأعيد لك التربية... أفسدوه يا ربي ، يجب أن أهذبه ، هاه...

يمشي ويحدث نفسه ، يفتح أبواب الغرف واحدا واحد لكنه لم يجده مما زاد هذا من غضبه. و« عقيل » في بيت الخلاء ، ذلك المسكين الطيب البريء كطفل ،

يحاول أن يسرع ويلبس قبل أن يتحول والده لوحش ويفترسه ، لم يكن يستطيع التحدث في بيت الخلاء لأنه كان إنسانا يحيط بدينه علما ، إلا ما غاب عنه ، وأن الحديث في هذه الأماكن غير لائق. يرتجف ، وقد سلب الرعب منه الكلمات ...وما إن أنهى غلق أزرار بنطلونه ، وعزم على فتح الباب حتى دفعه عليه والده:

_وجدتك أيها الحقير، إذن كنت تختبئ هنا...

يلهث وعيناه تقطران شرا ، محمرتان كأنهما نار مستعرة ، وذلك الوجه الأسود المرعب زاد تفحما. يحاول أن يشرح له ، لكنه يأبى أن يسمع شيئا ، لاشيء ، لاشيء...

_إنـ.. أرجـ. أننا..

_تختبئ من والدك يا « عقيل »؟ أين تدرس؟ في حظيرة الدواب؟ ألم يعلموك أن لا تعصي والديك!؟ ، هاه. يا ليتك مت مع أمك العام الماضي وارتحت منك...

هكذا هو ، لا يسلم لا من لسانه ولا من سوطه ، ولم يشعر حتى نزل على خده كف أبيه ، سارع يحمي خده الآخر ، فانهال على رأسه ضربا بلا شفقة داخل الحمام ، أينما حاول أن يحمي نفسه باغته لجهة أخرى..

« عقيل » شاب يافع قوي ، لكنه لم يكن يجرؤ أن يرد عليه ، كان الدين ووصية ربه بهما حاجزا بينهما ، العائق الوحيد الذي يعصمه من غضبه.

سحبه بقوة خارج الحمام ، ومازال يركله وهو يحاول الفرار من قبضته ، يئن ، يتعتع ، لكن الوحش المفترس قد كشر عن أنيابه وسحب مخالبه ليفتك بفريسته الضعيفة ، يمزقها بلا رأفة... فلا مفر لها منه إلا بموت يريحها منه... لكن ، « عقيل » كان الحي الميت ، جسد فارغ ، قلب محطم وعقل يزخر بالعلم ، فكان تلك الأمنية في قلب متلهف لولد صالح مثله محروم.

يضرب ، ويضرب. وكلما ركن ليهدأ يذكره بكلمات الله التي كان أولى بتطبيقها هو ، ينبزه ببئس الألقاب. ينهض عنه يلهث ، بالكاد يتحكم بأنفاسه:

_حيوان بلا عقل ، كان يجب أن أطلق عليك اسم الحمار الذي لا يتحرك إلا بالضرب..

وغادر تاركا إياه لا يقوى على المسير ، يحبو نحو غرفته يشهق ، يقاوم دموعه بكبرياء ، لكن لا يستطيع ، فينفجر معانقا الأرض يبكي ويبكي.

ما أقسى قلوب البشر ، وما أحن الحجر وقت النائبات ، فنطق الأصم يواسي ، وصم الناطق القاسي...

******

فتح عينيه يلتفت حوله ومشى وسط ذلك الثلج ، لا يدري نحو أي مكان سيمضي ، يتحدث بيديه بصوت عال...

صراخه التطم بجدران البيوت فاستقر بجوفها يئن ، فتئن معه ، فأيقظ ساكنيه.

حمله الريح فامتزج بها ، تحسبه ذئب يعوي في تلك الظلمات الباردة.

_آه ، صوت من هذا؟! آه يا ألهي.

صراخ؟.

أخذت تحضن ذراعيها ، فقد عرفته ، من لا يعرف ذلك الصوت؟ وما هي إلا لحظات حتى بدأ يبتعد ويتلاشى ، ولم تعد تدركه الآذان... خائفة في غرفتها المظلمة ككهف بارد.

******

فوضى الأحاسيس

تنتعل حذاءها الشتوي ، سارحة في ذلك المنديل ، غارقة في خيالها تنظر إلى النافذة ، فيقفز إلى ذاكرتها أصوات البارحة في منتصف الليل ، فقد كانت ليلة مفزعة حقاً. بعينين كساهما الحزن ، وفي داخلها آلاف الأسئلة التي بحاجة إلى إجابات ، خائفة على الدوام تجول الأحاسيس المفزعة في صدرها ، الذي يضيق كلما تذكرته. تحمل ذلك المنديل وتضمه إلى قلبها ، فتصاحبه راحة سرعان ما تنجلي بصوت والدها المرعب...

******

وفي بيوت امتلأت بالأسرار ، وثقل عليها كتمانها ، هناك بيت تنبعث منه المحبة أواسط ساكنيه ، ضحكاتهم تتراقص هنا وهناك ، يكنون لابنتهم مشاعر لطالما كانت تثير الحزن في داخل «عروبة» التي تتقطع ألما كلما وجدت والدها يلاعبها ويمسح على رأسها ، وهي لا.. لكن القلوب المحظوظة عمياء ، وهكذا كان قلبها الأسود. على الدوام مشغولا بما عند هاته المسكينة لا ما عندها من نعم فتثني عليها. تخطط وتكيد المكائد ، وتدبر الأمور لتفرق بين الثنائي تعيس

الحظ...

_هيا يا ابنتي ، لنذهب حتى لا نتأخر...

_الدفتر الأخير وسنذهب.

تنظر من خلف النافذة إلى بساط الثلج الذي افترش الأرض كلها ، وتتحدث مع نفسها بحقد:

_ما لذي أعجبه بها؟! لا أزال للآن محتارة ، إنها كالمجنونة الغبية في مشيتها ، في حديثها ، في كلماتها وحتى في أسلوب تعاملها ، مقرفة. لا ، أكيد ليس معجبا بها أنتِ تتخيلين ، فاهدئي. بلى ، إنه معجب بها رأيت ذلك في عينيه نظرة أب حنون ، أخ عطوف ، حبيب مغرم...آه.

قلت لكِ اهدئي ، لا لا. علي إيجاد حل قبل أن يتفاقم الوضع ويدمنها.. أنا من يحق لي أن أكون إلى جانبه. سأتحكم بكما كما الدمى أقسم بهذا ، وسأحرك قلوبكما كما أرغب بين يدي هاتين..

_ « فتون » تأخرنا.

_ أنا قادمة يا أبي.

نظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم نظرة أخيرة ، وغادرت الغرفة.

******

تترجل من سيارة أبيها بكبرياء ، كأنها ملكة ويسارع ليفتح لها الباب ، يرتب لها معطفها لكي لا تبرد ، ويطبع على جبينها قبلة أبوية مليئة بالعواطف.التقت عيني « عروبة » بهما من مكان ليس ببعيد ، فخنقتها المرارة التي تعيشها ، تقف كغصة في حلقها. أخذت تصعق قلبها المرهف ، بعينيها المحرومتين من السعادة ، تتصدق عليها الأيام بين الفينة والأخرى بلحظة فرح قصيرة المدى ، طأطأت رأسها ، وامتلأت مقلتيها دمعا تهمس للثلج على الأرض:

_ إنها محظوظة صح؟ محظوظة كما الثلج في القمم ليس كمثلك تحت الأقدام تدوسك...لم يعد يهمها أن تئن أو تتألم ، مشت تجر ذيول الكآبة والحسرة ، تبتلع الهواء البارد بمرارة الذكريات ، لتستوقفها كلمات كنصال حادة؛

_ألن تنزعي عنكِ هاته الملابس التي تشهد لها القرون الغابرة؟.وترسل ضحكة استخفاف عليها تتبعثر سريعا برد « عروبة » لها.

_عندما غيرتها مع كل رمش عين ، من نظر إليها؟.ردت عليها بقهر ، فأفحمتها ، ترمقها باستفزاز وتحدٍ. كان ردها غير متوقع من فتاة تبدو بلهاء ، ونزل على قلبها كجمرة أضرمت الحقد في أركانه أكثر فأكثر. تركتها تلتهب هناك يحطم بعضها بعضا لتواصل مسيرها ، وكانت تلك بداية التغيير. ولا أحد يعلم ما يجول في الخواطر ، إلا صاحبها.

*****

الغرفة هادئة والصمت يقفز بين الطاولات يرقص ليغيض الفوضى ، يشاغب على غير عادته. إنها ساعة التاريخ ، مع تلك الأستاذة المتجهمة كفصل الشتاء ، لا يقوى أحد على النظر إليها ، ترعبهم نظرتها فتسكت حواسهم ، وفي أواخر الصفوف تجلس برفقة قلمها تخربش معه قد أذابته نعومة يدها ، يرقص مع الحروف على أديم دفترها ، وباليد الأخرى تشد على منديلها. فرحتها تكاد تلتهم ما حولها ، وسعت كل شبر من تلك الغرفة ، لا القرية. بل العالم كله.

_عفوا أستاذة هل لي بدقيقة..

قفزت أذنها تهرول باتجاه الصوت ، لترفع بصرها ناحيته ، كان بهيبة ملك يتكلم مع الأستاذة عند الباب ، يشرح لها شيئا ما ، ويشيح ببصره ناحيتها يبادلها النظرات مبتسما بعيونه الواسعة. وحالما أنهى كلامه معها توجه ناحية تلاميذه تعلو وجهه ابتسامة رقيقة:

_ كيف حالكم؟.

يرد عليه الجميع بفرح ، فقد أصبح أستاذهم المفضل العزيز عليهم ، بعد أن كسر حواجز الأستاذية بينهم..

_ اسمعوني ، عندكم امتحان شهري بعد ساعة ، حسنا. هل يساعدكم هذا؟؟ وأكرر لكم دائما لا داعي للخوف فهي أسئلة قد درستم عن مضمونها سابقا.

أشاروا إليه بالموافقة ، كانت فرحتهم تثير استغراب أستاذتهم ، فلم تعهدهم هكذا ، ولم تعد ترهبهم الامتحانات كالسابق على الأقل في مادته ، لأنه استطاع أن يجعلها محبوبة لهم مجدين فيها لا يخافون من الأسئلة المباغتة فقد أعدوا لها العدة. وغادر بعد أن أرسل قبلة بعيونه لعيونها الغارقة في بحره ، تؤنسها إلى أن يحين لقائهما المنتظر. عاد البرود والكآبة يستعرضان في الجو وتمر الشهور مسرعة متضاربة مع الأيام ، يبدو أن فصل الشتاء سيطول هاته السنة من أماراته.

شردت قليلا ثم وضعت منديله على فمه ، كأنها تذكرت أمرا محزنا ، تنظر إلى اللوحة بالجدار إلى التاريخ ، لتغمض عيناها؛

_أيام معدودة و...

تنهدت بألم ، وذهبت بخيالها إلى أين لا يمر الوقت ، تراه بلا زمن يقيدهما أو مكان ، غيرهما لا أحد في الوجود. يبدو أنها لم تحس للجرس حين دخل عليهم يحمل هاتفه ، يتحدث إلى أحدهم بلغته المتمايلة العذبة ، و « فتون » تبتسم كأنها فهمت ، ينظر إليها وقد أنهى المكالمة:

_بكِ خطب ما؟.

_أضحكني ما قلته بالهاتف ، آسفة إن كنت قد استرقت السمع ، فأنت كنت تتحدث بصوت عالي.. يرد عليها بالأمازيغية:

_أنتِ أمازيغية؟.

_نعم أبي أمازيغي وأمي عربية ، نعيش هنا ما يقارب العشر سنوات.

_مختلطة الأنساب!.

_نعم.

يومئ برأسه ، مبتسما ابتسامة خفيفة ، حين ذكره قلبه بـ« عروبة » ، وسرعان ما نظر إليها فوجدها تلتهمها الغيرة ، فارتبك وابتسم ، وعزمت أن لا تنظر إليه مجددا.

مضت الساعة وما هي إلا ثوانٍ حتى رن الجرس ، فعلا ، لم تنظر إليه منذ أن بدأ الامتحان ، أحس بفراغ وشوق لعيونها. سلم الجميع أوراقهم وخرجوا إلا هي آخر واحدة تسلمها ، وقد همّت بالخروج فأوقفها:

_لنلتقي..

نظرت إليه كمن لم يفهم:

_أريد الحديث معكِ مطولا عن حياتك ، فهاته الدقائق لا تكفي..

ابتسمت وأحست بالخجل ، ونسيت سريعا غضبها منه قبيل برهة ، لكن اعتراها الحزن من جديد:

_لا أستطيع ، آسفة.

_لماذا؟.

_أخاف..

_من ماذا تخافين؟؟.

_ أن يرانا أحد ما فيصل الخبر إلى أبي ، وأعاقب عقابا عسيرا لا يغادرني إلا موتا في هذه المرة...

_لا تخافي. سأجد طريقة ما لنلتقي دون أن يراك أحد. أنا أعدكِ لن يصيبكِ سوء.

رد عليها بصوت خافت ناعم ، ذلك الصوت الذي يقتل الخوف داخلها في كل مرة يتحدث هكذا معها ، وأخذ يخرج شيئا من جيبه ، إذا به...

كانت تنظر إليه بفرح وقد اغرورقن عيناها دمعا ، تلك الدموع السباقة لفرحتها كطفلة صغيرة ، لعل هذا هو السبب الذي جعله ينجذب إليها أكثر فأكثر.. براءتها القاتلة للأحقاد والكراهية داخله.

_رأيت الجميع يملكون قاموسا إلا أنتِ ، هو صغير بإمكانك إخفاؤه.

يبتسم لها ، ودَّ لو يدنو منها ويمسح دموعها بيديه ، فقد كانت تضايقه رؤيتها تبكي أمامه ، تعجزه وتضعفه:

_ثرميث...

يضحك عليها ، وهي مستغربة.

_ثَنْمِيرْثْ.

_ثنميرث ، ثنميرث. صح لقد نسيت.

كانت تضحك كملاك ، أنستها الفرحة التي عقدت لسانها. تمسح دموعها ، معانقة هديته الثانية. الاهتمام يأسر القلوب ويروض القاسية منها ، والقيمة ليست بثمن الهدية بل بما تعنيه للمهداة له..

******

في هذا الجو البارد ، تتعارك مع الكلمات تشيِّد بها جملة امتنان أو اثنتان ، مستعينة بذلك القاموس. وأخيرا أنهتها بابتسامة عريضة ، تضرب مفاصلها ببعض من شدة البرد ، وأنفاسها ترتسم كغيمة في الفضاء البارد...

يجلسان في أحد الكراسي ، في تلك الحديقة الجميلة المحفوفة بالأشجار ، ينظر إليها فتنظر إلى الأرض التي ارتوت حديثا بالأمطار ، مرتبكة:

_ألن يرانا أحد هنا؟.

_لا ، فليطمئن قلبكِ..

تنهد قليلا يتأمل في الأرض في فمه تتعارك الكلمات لتخرج منه ، ترفع عينيها لتنظر إليه ، فتجده نظر إليها باسما:

_حدثيني عن حياتكِ.

_هاه ، لا أدري من أين أبدأ حقيقة.

_من أي جهة تريحك.

كانت تفكر قليلا ، حين وجدت ما تقوله له ليقطع صوت أبيها السكون

وينفجر في أذنها:

_عروبة؟ عروبـــ..

فتستيقظ هلعا ، ينظر إليها عن كثب ، فتنظر إليه خائفة ، يراقبها بصمت:

_وقت الذهاب..

وغادر بعد أن طافت به رأفة سرعان ما تمزقها قسوته. تسترجع أنفاسها ، تتفقد قاموسها ، وتسرع لتضعه في حقيبتها وتجهز نفسها ، تسترجع المنام وطلبه بلقائها.. فتصارعها نفسها في إعصار من الأفكار السوداء:

_يجب أن ألتقي به. لقد مرت عشرة أيام ولم أردّ له بخبر.. لكن ، ماذا لـــ... لا يجب أن تخافي يا « عروبة » يبدو إنسانا طيبا وذا خلق ، وفعلا له نية بمساعدتكِ.

توقفي ، ماذا لو سمع والدكِ أو أخوكِ سعيد ، سيقتلانكِ ، فكري قليلا ولا تتهـ... لماذا قد يرانا؟ وكيف سأنجو من بطشهما؟ أخاف أن أقضي حياتي تحت سوطه ضحية ، أليس لي حق ببعض السعادة وراحة البال؟

إن أبوكِ رجل شديد ، والكل يعرفه ، وألسنة الناس لا ترحم ، احترسي ، دعكِ من الاتكال على الغير واصبري. أصبر؟ ماذا أصبر لقد انتحر الصبر لصبري ، أنا أموت ، أشعر بالانهيار والقهر كلما رأيت السعادة على محيا الغير بارزة وأنا لا. هل كتب لي الشقاء؟ ألا نستطيع التخلص منه؟ لماذا الصبر وأنا أستطيع أن أعيش سعيدة ، أعرف أن « أمازيغ » سيساعدني..

سيكون الثمن باهضا. وماذا عن عمري الذي ذهب في الظلم هباءًا ، سدى ، ألما ، حسرة وويلات.. لا أريد أن أختم حياتي حزينة ، لا أريـ...

_ ماذا تفعلين عندكِ؟ لقد أخّرتني.

كانت تلك النظرات في وجه والدها سببا لتقرر أخيرا...

******

في ذلك الفناء أين تلتقي المشاعر المتضاربة ، يزحف التلاميذ نحوه مرهقين يحذوهم الملل ، كأنما كانوا يحملون أثقالا. أثقال؟ طبعا ، هل يوجد أكثر من العلم ثقلا. من بينهم تمر بخطوات متوترة ، متجهة نحو صالة الأساتذة ، فتلمحه جالسا منهمكا مع حاسوبه ، متحيّرة كيف تلفت انتباهه ، وإذا بالحارس يتجه نحوها:

_ماذا تحتاجين؟.

_أريد الأستاذ « آيت هنّي ».

ترتجف الجمل على لسانها فزعا ، التفت بسرعة حين سماع صوتها ، واتجه نحوها مسرعا ، فرحا:

_أنا استدعيتها..

نظر إليها ، يتبادلان الابتسامات ، وقد ذهب الحارس رجوعا؛

_ماذا تحتاجين؟!.

_تفضل..

ودنت منه تقدم له ورقة مطوية ، وذهبت ناحية الفناء. يرصدها بعينيه حتى اختفت ، وسار يفتح الورقة ، يقرأها...

******

تنزل من الدرجات بسرعة ، فتصطدم بأحدهم يلهث يكاد يفقد أنفاسه:

_آسف...

يسعل واضعا يده على فمه ، ترقبه بعينيها وقد دنت منه أكثر ، تحدق به بحنان محاولا أن يقبض على أنفاسه الهاربة منه أخيرا:

_لماذا نزلتِ؟.

_لم يسمحوا لي بالبقاء ، قالت أنه وقت الغداء..

_لكن..

نظر إلى ساعته.

_إنها الحادية عشر والنصف ، لماذا تغلق الآن!.

_ تعالي..

لحقته حتى دخل للمكتبة ، فالتقى بالمسئول عنها تهم بالخروج ، فنظرت إليه:

_مرحبا سيدتي ، هل ستغلقين الآن؟!.

_نعم أستاذ ، تحتاج شيئا؟.

وإذ بها تلمحها خلفه مطأطئة الرأس مرتبكة ، فتنظر إليه مجددا:

_أستاذ أنا مسئولة هنا ولا أستطيع أن أخالف التعليمات الواجب علي أتباعها..

_هلا تفضلتِ علي فقط هاته النصف ساعة المتبقية لأشرح لها درسها؟ هي تلميذة مجتهدة ولا أريد أن تُفوّت دروسها.. وأظن أنكِ لا تزالين في إطار عملك.

_حسنا.

_شكرا لكِ.

ونظر لعروبة بفرح؛

تعالي.

رجعت المسئولة لمكتبها ، وتقدمت « عروبة » مع « أمازيغ » إلى إحدى الطاولات وكان الجو باردا ، نزع معطفه الصوفي رمادي اللون وغطاها به ، فأحرجت:

_البرد سوف تمرض.

_اطمئني أنا قوي.

وأشار إلى عضلاته متباهيا بها ، وهي تبتسم. كانت الدقائق تمر مختلطة مشاعرهم بذلك الجو البارد سرعان ما تحول إلى دافئ بوجودهما.

تحكي وتحكي ، دون توقف ، مصدوم لما يسمع يود لو يخطفها إليه ويحتضنا بقوة لتنسى ماضيها الأسود.. وفي الطابق السفلي أكبر حية تزحف نحوهما بخبث ، خدعت الحارس بأنها نسيت كتابها في المكتبة وقدِمَت لتسترجعه ، فانطلت عليه الحيلة بدهاء ماكر:

_لقد رأيتها تذهب من هذا الاتجاه ، منذ ساعة. تقدمت إلى باب المكتبة تسمع أصوات ، كانت مألوفة. تتقدم أكثر ، فتجد الباب مفتوحا قليلا:

_هذا صوت الأستاذ و..

تستشيط غضبا ، وتفتح الباب بهدوء لترى ماذا قد يفعلان بالمكتبة فإذا بها تجدهما غارقين يسرحان في عيونهما ، وقد وضع يده على يدها يشد عليها بقوة ، فتشهق بغيض ، بعينيها المحمرتين كالدماء.

******

لم تعد تلك الغرفة بائسة كما كانت ، فقد أصبحت وبرغم الأسى جنة ، تطوف بخيالها حول الذكريات الجميلة معه. فتحس براحة ، وما زادها رضا أنها شاركته أحزانها وآلامها ، تتوسد السعادة فتخاف أن تهرب منها. كانت الأيام تقربهم من بعض أكثر فأكثر ، وبعد أن رأى كل منهما حقيقة الآخر دون أن يضطر لسماعها من الآخرين اطمئنا بكثير ، فالذي يبحث عن الحقيقة عليه أن يكلم الحقيقة ، ومن لسانها يسمع.

كانت تستعيد كلماته بفرح ، ترتلها على قلبها المنكسر فتجبره...

«... كانت تسبح في عينيه ، فلم تعد تخشى النظر فيهما ، والإحساس بالأمان الذي تشعر به معه غيَّرها وأعطاها معنى آخر لحياتها ، وزادها قوة إلى قوتها. يضع يده ملامسا يدها الناعمة ، ويدنو منها أكثر وأكثر ، يستمتع بحديثها

وروح الطفولة داخلها التي أوقعت رجولته في قلبها البريء ، يود لو يخبرها أنها تستحق الأفضل ، بعد تلك الموجة من الآلام والحسرة.

_ ماذا عن حياتك أنت؟ كيف تعيش وهل أبوك قاسي مثل والدي؟؟

_ أبي إنسان طيب جدا ويحبني بشدة..

طأطأت رأسها ، بعد أن أحست بشعور الحرمان الذي جرفها ، يشد في روحها ليعيدها إليه:

_ سأحكي لكِ عن يناير ، تعرفينه؟ واضح أنك في العصر الحجري ، مادام التلفزيون لا تملكونه.

وضحك حتى بانت بيض ضواحكه ، تلمع في عينيها الحزنى الثُكْلِ للفرح ، تتأمل شفتيه المتربعتين على أسنانه البهية ، واضعة كفها على فكها:

_ نعم ، أرغب بشدة في معرفة كل شيء عنـــ..

صمتت وقد شد على يدها بقوة ، وتنهد مما جعلها تحس بالحرج:

_ أكملي...

_ أريد ، أقصد... ذهبت الكلمات عني. تعرف لقد نسيـــ...

أطبق على شفتيها بإصبعه ، فأحس بحرارة أنفاسها فارتعد بقوة ، أما هي فلم تجد ما تفعل غير أن تغمض عينيها بعد أن تسمرت في مكانها بلا حراك.

_ سأخبرك كل شيء عني بشرط؟.

فتحت عينيها ، تومئ له ، وبصوتها الخافت الناعم ترد:

_ ما هو؟.

_ أن لا تخفي عني شيئا يخصك من اليوم فصاعدا ، أي حدث ولو بسيط وتافه يقع لكِ أعلميني به. اتفقنا؟.

أومأت برأسها بالقَبول ، مسرورة الروح والجوارح ، وراح يحدثها عن عالمه وحياته ، تسأله عن كل شاردة وواردة. وصاحبة المكتبة تجيء وتذهب عليهما ، تحسبه يشرح لها درسها.

_ أه ، قلت لي ستخبرني عن مهرجان يناير؟.

_ نعم ، فعلا. هذا المهرجان معني به الفلاحين بشكل كبير ، لأنه يمثل لهم موسم الحرث ، وفيه تبدأ العزائم والتحضير للاحتفال الكبير. في الثاني عشر جانفي، والذي نطلق عليه بالشهور الأمازيغية " يناير " فيه يتوحد القلب الأمازيغي..

_ ممم ، عفوا ، وماذا يعني يناير؟؟.

_ يعني؛ يَنْ أول ،وأَيُّورْ شهر ، فتتشكل بذا " أمنزو يناير ".

ضحك قليلا ، فرفعت حاجبيها استغرابا:

_ لماذا تضحك؟.

_ تعرفين ، عندنا عادة تبدو غريبة لكنها تعني الكثير للأمة الأمازيغية..

_ وما هي؟؟.

_ اسمعي ، في هذا اليوم المقدس بالنسبة لنا هناك " اسفل " وتعني نحر الأضاحي. يقوم الرجل بشراء ديك ، والمرأة دجاجة وعن المرأة الحبلى دجاجتين..

ضحكت فأسكتته ضحكتها ، فشرد في تقاطيع وجهها الفاتنة ، لتتوقف قليلا لا تشيح ببصرها عنه ، وما إن هزمته بنظراتها وأحست بضعفه قاطعت ذوبانه:

_ ولماذا يفعلون هذا؟.

_ الاعتقاد السائد هو أن ذبحهم يفتك بالعين الشريرة والنفس الحاقدة ، ويبعد سود الأكباد عنا ، وتفتح باب الرزق وتجلب السعادة..

_ السعادة؟.

_ نعم.

_ أنا تعيسة حظ. ليتني كنت هناك ، لأذبح وأعيش بسعادة..

_ ستعيشين بسعادة أنا متأكد. أما الدجاجة فسأذبحها لكِ العام القادم.

وضحك مجددا فضحكت معه. تلك الضحكة التي كانت تحمله بشائر تريحها ، وفي نفس الوقت شعور بمرارة لا توصف ، يكبس على صدرها بقوة...

_ وسوف أطعمك من " سكسوسوكسوم "..

_ آه ، توقف ما هذا أيضا؟.

_ هذا سيد المائدة في العشاء الينايري ، العشاء المبارك. وفيه تطبخ عدة أطباق ومن الاعتقادات أيضا ، يجب أن تأكلي حتى تشبعين وإذا لم تشبعي تلك الليلة..

سكت قليلا ، فردت مسرعة متلهفة لإجابته.

_ ماذا سيحدث؟؟؟.

_ هممم ، ستصبحين وحشا ضخما.

فتحت عينيها وارتعبت ، وامتص الهلع حمرة وجهها.. فانفجر ضاحكا وكتمها خوفا من أن تسمعه المسئولة:

_ أمزح معكِ ، لماذا شحب وجهكِ..

_ أخفتني ، قلت أبي يشبع كل ليلة ووحش..

وضحكت ببراءة فأحس بالحزن يعتصر فؤاده ، على براءتها:

_ تعرفين ، أنا أح..

ورن الجرس مقاطعا حديثه ، وخرجت المسئولة مسرعة فرحة ، فرافقه شعور بأسى شديد مما تركها متشوقة لتعرف ماذا كان يريد أن يخبرها به...

******

هل ستنجلي هذه السحابة عني؟ لا تتوقف تمطر علي الأسى والحسرة ، أوجاعا لا تنتهي أصواتها داخلي. وقد نظرت إلى « فتون ».

_لا تزال هذه الحقودة تنظر إلي هكذا ، تحسبني هينة الكسر ، غبية الفهم... أعطوك قيمة لا تمثلك. حقا عُمي حين جعلوا منك اسما فانتفختِ كالدخان الذي لا يأتي إلا لمصيبة ، تتنهد و تنظر إلى الباب ، ليطل منه كأمير وسيم بذلك اللون الأبيض ، يضع حقيبته على مكتبه مرسلا إليها التحية بنظراته ، قبل أن يبدأ يومه الذي صار مميزا بوجودها ، لكن هناك من لا يرغب باتحادهما ، وسيعمل جاهدا على التفريق بينهما..

يقدم درسه ، تارة يمازحهم و تارة يعاملهم بقسوة ، والتي لم تكن إلا لصالحهم ، وقد لاحظوا التغيير الكبير الذي طرأ عليه ، متسائلين ما سببه؟!.

شارفت الساعة على الانتهاء ، يفتش في أدراج المكتب فيجد ورقة قد وُضعت هناك ، يحملها ليحاول أن يقرأ ما كتب فيها ، معتقدا أنها « لعروبة » مبتسما ، فقد تطورت علاقتهما في الآونة الأخيرة وأصبحا مقربين يتحدثان عن حياتهما كلما سمحت لهما الفرصة ، بعدما أغدقت عليهما الدنيا من فيض عطفها.

فتح الرسالة وما هي إلا بضع ثوان ، إذ بتقاسيم وجهه تتغير وترتسم عليه ملامح الغضب ، ينظر إليها ، قد احمرت عيناه...

حطام الذكريات

_ألن تجيبوا؟.

متجهم الوجه مكسور الخاطر ، قد تلاشت الفرحة من عينيه ، ينظر إليها كمن خاب ظنه. وهي لا تعلم شيئا أو حتى ماذا حدث له.. لم يخطر ببال أحد أن تكون الرسالة عن عروبة ، بل خطر ببالهم قد يكون سباب أو تهكم ، وعلى الأغلب عن عرقه.. لكن من سيسبه بعد مرور شهور؟! بقي الجميع مشتتين ، ودقت أجراس الصمت.

جلس بعد أن استنزفت قواه ، ولم يحصل على جواب ، يسأله التلاميذ ماذا فيها؟ متعاطفين معه ، يقرأ ويعيد في تلك الرسالة في نفسه ، والتي يبدو أن مرسلها كان ذكيا فكتبها بالحاسوب وطبعها ، مما نبهه إلى أن الذي وضعها في الدرج واحد من الحاضرين داخل القسم...

خرج ولم ينظر إليها ، وهنا بدأت تراودها الأفكار السيئة. تتصادم معها الهموم ويقع عنها ثوب الفرح... ظلت على هذا الحال تحاول أن تسأله بعينيها فلا يجيب ، تتقرب منه فيفر منها ، لم يعد يبالي بشيء. ضائع ، في حيرة من أمره..

******

ها قد اقترب فصل الامتحانات سريعا ، وها هي الأيام تمضي كما البرق في السماء. تفكر وتفكر ، عسى تجد طريقة توصلها إليه مهما كلف الثمن ، فلا يمكن أن تبق على هذا الحال. بلا شرح عن الجفاء المفاجئ ، أقل ما يمكن أن يفعله بحقها. تمشي بين دفتي ذلك الرواق ، الذي بدا طويلا لا ينتهي أرهق قدماها المثقلتان بالحسرة ، كئيبة يائسة ، يباغتها الدمع على غفلة منها ساحبا نفسها لجيدها بقوة ثم يطلق سراحه مجهدا ، بالكاد تقوى على رفع يدها لتزيح عباراتها عن خديها.

_ما بها المعتوهة شاردة؟!.

تضحك بسخرية ، بعدما تجاهلتها عروبة مكملة طريقها ، هروبها الذي كان يزيد الرغبة في استفزازها أكثر وإذلالها.

_هل كنتِ تحسبين أنه سيهتم لأمرك؟ فعلا تافهة ،ألم تستوعبي أنكِ كنتِ مجرد لعبة لتمضية الوقت في هاته القرية النائية ، ثم يمضي بحال سبيله..

والتفت إلى صاحبتها تضحك بصوت عال.

_هل أنا مخطئة؟.

استدارت « عروبة » إليها ، وابتسامة تعلو حزنها بصعوبة ، بكل ثقة ردت عليها:

_إن كنتِ تحسبين أنك ستكسرين شوكتي فأنت مخطئة ، وافعلي ما أنت فاعلة إياه وستجدينني كالجبل في وجهك. مؤسف حالكِ حقا ، لأنك لم تدركِ

غايتكِ.

_هاهاها ، تحاولين أن تسندي نفسك بكلمات لن تنفعك.. ستظلين العوجاء ، الرعناء والخرقاء. أود أن أعرف ماذا فعلت حتى كرهك.. هممم ، دعيني أحزر.

_ستبقين تلعقين الطريق التي أمشي عليها إلى القمة ، وستظلين تبحثين عن ثغرة ولن تجديها ، فأنتِ مجرد حثالة إن عرضت على كلب تقيأها...

نزلت هذه الكلمات كخنجر حاد عليها ، غلي منها الدم في عروقها ، وهمت « عروبة » بالمغادرة ، حين فاجأتها يد تمسكها بقوة من ذراعها وتسحبها إليها فآلمتها بشدة:

_اسمعي ، لن تفرحي به ، وإذا فكرتِ بالوقوف في وجهي سأحرقك وأحرقه... إما لي أو لن يكون لغيري ، هل تفهمين؟ .

_الآن فقط أدركت سبب تلك النظرات الحقودة ، احرقيني فلا أبالي بالآلام التي ستصيبني مادامت فداءه ، لكنك ستحترقين أكثر لأنه لن يكون لكِ مهما فعلتِ.. عليك أن تأخذي قلبه من يدي أولا.

ميلت رأسها كالأفعى ، ودفعتها أرضا بكل قوتها وانتشر صراخها ، تستغيث وما هي إلا ثوانٍ حتى تجمع الجميع حولها ، و « عروبة » مصدومة من حقارتها تنظر هنا وهناك طريحة الأرض. أدركت في تلك اللحظة أن هناك من سينغص

عيشها مع حبيب قلبها ، وسيزرع المعاناة في حياتها ، ورأت وجهها الحقيقي الذي تعرى أخيرا. معلنة الحرب:

_لماذا كل هذا الصراخ أيتها التلميذة؟!.

جاء عون التربية يتمايل ببطنه التي تصل لذقنه ، يصفع راحة يده بعصاه الخشبية ، كانوا يلقبونه « بطبوط » لبدانته ، وفي الأدراج نزل « أمازيغ » يجر يأسه وإحباطه ، وإذا بعينه تخطف « عروبة » ملقاة على الأرض قبل أن يتكاثر التلاميذ كنحل على خليته ، سارع متجها نحوها يخترق صفوفهم واحدا واحد. وصل إليها ووجدها تصارع ضعفها لتقف قبل أن تراه فتذهب قوتها مع نظرات عينيه ، بعد زمن من الجفاء تراهم أخيرا وقد اسود تحت عيونه كغيوم تشرين... انهمك عون التربية يعاتبهم ، قلما يخرج جملة فتخنقه شحوم رقبته مدغدغة حروف كلماته ، يتقدم « أمازيغ » ناحيتها يرغب بمساعدتها على النهوض ، فانفجرت باكية ، بعد أن أحست بضعف لم تشعر به من قبل ، وانهزام مؤلم:

_سسسسـ...

تضطرب أعصابها بمعاملته المليئة بالحنان ، وتنفجر قائلة:

_كانت تحاول ضربي منذ قليل ، فدافعت عن نفسي ، لم أشعر حتى أراني طرحتها أرضا...

نظر إليها برأفة مستغربا ، غير مصدق ما سمعه بأنها قد تحاول أذية مخلوق. و« عروبة » لا تزال تقاوم الإعياء الذي راودها.

_ما السبب الذي جعلك تحاولين ضرب « فتون »؟.

_هي ، هي..

كانت ترغب بإخباره ، وهو يحثها بعينيه أن لا تخاف وتتحدث دون حرج ، لكن فشلت...

_ وأيضا...

وصمتت قليلا.

_ وأيضا ماذا؟؟؟.

فحصتها « عروبة » بعينيها التي ضيقتهما ، وفجأة فتحت عينيها خائفة أنها ستخبرهم بما قالته عن الأســ... ولم تكمل حتى نطقت « فتون »:

_ وهددتني بأنني إن لم أترك صاحبها سوف...

نزلت هذه الإجابة غير المتوقعة كصاعقة ، قد خرجت منه عيون « أمازيغ » كمن خنقه ، يتجمع الدم في وجهه وانتفخت أوداجه متذكرا الرسالة. كانت الأرض تدور وتدور حول « عروبة » لا تعي شيئا من حولها ، ارتد لون وجهها وشفتاها أبيضا ، يُصفر طنين حاد في أذنها...

بدأت تستعيد وعيها تدريجيا وتفتح عينيها بصعوبة ، تلتفت يمينا وشمالا

لتعرف أين هي. كانت تلك غرفة استعجالات صغيرة لتسعف التلاميذ عند المرض ، تبحث عنه في وجوه الحاضرين لكنها لم تجده فشعرت بألم شديد ، وتحجر الدمع في مقلتيها ، تحاول أن تسترجع ما الذي حدث لكن بلا فائدة ، ذاكرتها تبخل عليها وقد صاحبها صداع لا يوصف وجعه. حملت نفسها بصعوبة والمدير يحدثها بالكاد تلقف أذنها كلماته ، يدنو منها ليساعدها على النهوض:

_ بنيتي ، والدكِ خارجا بانتظارك.

توقفت عن السير ، ونظرت إليه كأنما زارتها الموت ، وقد سقطت دمعة من عينيها ترتجف ، فأحس بالأسف والشفقة عليها.

_ لكنني لم أفعل شيئا ، كانت تكذب علي...

بكت بحرقة حركت قلب المدير الذي كان يعرفها حق المعرفة ، ويشهد لها بحسن خلقها ومثابرتها في التعلم:

_ أنا أعرفكِ يا بنيتي وسوف أكلم والدك ، لو كان بيدي ما هتفت له ، لكن تلك التلميذة أصرت على قدوم والدك ، ومركز والدها العملي كونه مديرا أيضا جعلني أتصل بوالدكِ... حاولنا أنا والأستاذ « آيت هني » إقناعها بأن تتجاوز الأمر لكنها لم تسمع لنا.

ارتسمت على فمها ابتسامة شاحبة ومشت ببطء ، ولم يعد يهم الذي يحدث بعدها.

في تلك الصالة الخانقة ، الجو حار يكاد يذيب جدرانها ، خلع ملابسه وارتمى في سريره مغمض العينين ، يضع مرفقه على جبينه تائها يفكر بـ« عروبة » ، يطعن قلبه العتاب بلا رحمة. وكلما تذكر دموعها زاد ضعفه وانهارت قواه. ضعف لم يشعر به حتى مع حبه المهول لـــ« دهية » حبيبته السابقة.. تقفز به الأفكار من نار إلى نار اشتد حرّها في قلبه ، تقيمه الذاكرة وتقعده ، كلما تنهد ارتفع صدره بقوة وضرب على ضلوعه كأنما جبل راسي عليه..

_كيف لم أبق معها في تلك الحجرة. كيف ، كيف؟ كم كنت قاسيا معها ، أخ سأنفجر..

حمل هاتفه ، ونظر إليه قليلا ثم وضعه.

_لا أظن بأنني سأجد من يفهمني ، حتى وإن اتصلت بـ« يـوبا » سيظل يستهزئ بي فقط ويزعجني ، ولست في مزاج يتحمل ذلك..

وضعه واتكأ على يمينه مغمضا عينيه عسى يرأف به النوم ويشفق لحاله الإرهاق ، فيرحمه.

أما « عروبة » فكانت أسوأ منه حالا ، فهناك في طرف القرية الصراخ تعالى من بيتهم ، تحاول أمها أن تمنع « سعيد » وزوجها من ضربها لكن ، بلا فائدة ، فلم تكن تقوى على الاقتراب منهم ، وإن فعلت دفعها زوجها بكل قوة ليمسكها

المغضوب عليه كثعلب انقض على الطريدة ، فتكون الفرصة سانحة لأبيه ليضربها بلا شفقة ، تقاوم وتقاوم بمفاصلها التي هرمت ما عادت تحملها.. هنيهة وبدأ صراخها ينخفض رويدا ، رويدا. ولم يعد يسمع منها سوى أنين جسدها الذي يقاوم ، أما روحها المكسورة فقد كانت تشهق لا للضربات القوية التي تلقاها ، إنما رؤيتها لحلمها الذي ما ارتفع كثيرا إلا وسقط وتكسر بضعف ما ارتفع ، لتنتصر فتنة « فتون » عليها بأن فرقتهما...

******

ثالث الأيام تمر بلا ريح « عروبة » ، تتمايل « فتون » بفرحة ، بمشيتها الخيلاء ونظراتها السامة. بينما « أمازيغ » سيطر عليه الخوف من رأسه إلى أخمص قدميه ، وبدا عليه الحزن ، يكفنه ويدفن فرحته التي تعود عليها تلاميذه ، أولئك الذين رأوا الإعجاب والاهتمام الشديدين يقفزان في عيونه اتجاه « عروبة » فشاطروه نفس مواجعه..

_أين أنت يا « عروبة »؟ تركتِ قلبي يغلي خوفا على نيران الشوق. ويحي إذا يحدث لكِ سوء ، أخ..

كان انتصار « فتون » ظاهريا مؤقتا ، فداخلهما كانت تتأجج نيران العشق التي تستعر أكثر كلما ابتعدا عن بعض.. لا تبقي غير العتاب ، يأكل الجسد كما يأكل النار الحطب ، وحكم العين بغير ما ترى أشد الظلم ، وكم من صامت ما كان يجب أن يصمت على فتنة وقودها الهروب عن المواجهة ، لينتصر الباطل ، ينتصر على أرواح لو تبَيَّنت قبل أن تصيب قلوبا صادقة بجهالة ما التهمتها نيران الندم..

واقفة « فتون » مع أحد في الفناء تتهامس معه ، بدا الأمر مهما:

_هذا رقمه الهاتفي متأكد؟

_نعم تأكدت بنفسي.

_تفضل أمانتك.

انصرفت ولم تنظر خلفها ، تبتسم بخبث ، تتطلع إلى ذلك الرقم بنشوة الانتصار التي لم تشعرها من قبل..

******

قلبت الأوراق في ثقل ، تراجع دروسها لتقتل الوقت البطيء ، وبداخلها حسرة لا تحتمل ، بعينين فارغتين وروح متعبة. ما كان همها أن تدرس ، إنما أن تقتل. نعم ، تقتل الألم الذي يشغلها وتقضي على التفكير الذي سبب لها صداعا رهيبا..

لطالما كانت ناجحة ، وهذا شفيعها عند أبيها الذي جعله ينتفخ أمام الغير بتلك الطريقة ، يغيض بها الأقربين والأبعدين في كل مرة. فهل ستبقى دراستها شفيعا لها؟ مضت ساعتين وقد أحست بإرهاق شديد منطلقة لأحضان فراشها ، وارتمت عليه دون أن تحس ، تتوسل للنعاس أن يزورها. وما إن غطت في نومتها بعد صراع مع الأرق حتى أيقظها صوت قادم من النافذة...

بدأ الصوت يقترب ببطء ، شيئا فشيئا ، يقترب ويقترب مدغدغا أذنيها ، تفتح عينيها بصعوبة وسرعان ما يطبق عليهما النعاس لترتد صريعة. وما هي إلا ثوان حتى عاود الزحف باتجاهها ليوقظها ، تفتح عينيها خائفة لا تقوى على الحركة فتنزل بعض من خصلات شعرها الناعم تتثاءب على خديها ، لتلامس أهدابها بشغف ، تحاول تجاهله مغمضة عينيها.. فتفتحهما من جديد وترفع رأسها ناحية الصوت الذي أصبح صاخبا ، فقررت بعد تساؤلات أن تضطلع من خلف الستارة وترى بشق صغير فيها. فتشهق وتعيد الستارة إلى مكانها راجعة إلى سريرها مسرعة مرة أخرى وقد علت أصوات الضحكات الساخرة مختلطة بوقع أقدام تقترب منها ، كلما تقترب كلما تزداد حدّتها..

تفتح إحدى عينيها والعرق يتهاطل منها. كان أحد الأحلام المزعجة لا غير.

_لقد زارني في منامي.

تشرق في وجهها المعتم ابتسامة تنيره في تلك الظلمة الموحشة ، يحتضنها

ذراعاها ليبعثان فيها الدفء والطمأنينة ، وتعيدها الذكريات إلى الأيام الجميلة الغابرة.

«... « عروبة » ، هل تسكنين بعيدا من هنا؟؟ فقد لاحظت أنك في مرات كثيرا تصلين متأخرة..

_ نعم ، لكن ليس كثيرا. فبيتنا يقبع في طرف القرية.

_ إذن تعيشون لوحدكم؟.

_ لا.

_ حسنا.. »

قطع سهوها صوت طرق في النافذة ، ترفع رأسها مستغربة.

_ مجددا؟؟؟.

لم يكن مناما هاته المرة ، تضع يدها على ثغرها.

_ماذا لو كانت حيلة من أخي؟!!.

تغطي كلها محاولة أن لا تهتم ، لكن الفضول كان الغلاب هذه المرة. قامت تمشي الهوينى ، ونظرت ، فكانت الصدمة:

« أمازيغ »؟؟؟.

أدركت قلبها الذي كان سيسقط بكفها ، ورفعت الستارة بهدوء لتفتح النافذة بحذر. لم تفكر في أن يراها أحد فتلك الفرحة برؤيته أنستها كل شيء ، كان

ينظر يمينا وشمالا عندما لمحها فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ، تشير إليه بيديها أن كيف جئت إلى هنا ، لم يكن يرغب بالمغادرة سريعا لكنه اضطر ، أراها شيئا ما بيده وصوبه اتجاهها. أخرجت يديها لتلتقطه ، ونجحت بذلك.. أمسكتها بعد أن باغتتها قبلة أرسلها إليها تحرق برودة المكان فتحمر خجلا ، وأغلقت النافذة بسرعة. لتتنفس الصعداء ، وهمّت بالعودة إلى سريرها.

******

دخل إلى الصالة يمشي بهدوء حتى لا يوقظ أحد في تلك الساعة المتأخرة ، ترتعد أسنانه ، بعدما بلله المطر ، يقاوم أنفاسه بكفه. طاف به برد شديد سرعان ما تدفئ جسمه بصورتها التي لا تغادر خياله.

_سأتجمد...

حط رأسه على تلك الوسادة بعد أن غير ملابسه ، كلما استرجع لذاكرته البائسة الميتة محياها وشعرها الأسود المنسدل على وجهها وكتفيها ، أحيتها وبثت السرور في قلبه الحزين ، ليزداد انصهارا ودفئا. كانت أولى المرات التي يراها بدون حجابها فاتنة الجمال..

_لابد أنـها لم تنتبه ، أرعبها مجيئي... لكنـها فاتنة صدقا. آه ، لقد أذبتني يا « عروبة » في هذا الجو البارد التعيس.

******

« ... لا أدري من أين أبدأ فأنا أستحي من نفسي حين أذكر كيف عاملتكِ دون أن أشرح لك شيئا ، مع أنه كان من حقكِ أن تعرفي قبل أي شخص آخر ، ولأنني غبي ، فقد فعلت ما فعلت وأنا من النادمين. تنهشني الحسرة نهشا وزاد أرقي..

تلك الرسالة المشئومة التي فرقتنا بين يديك الآن طالبا صفحكِ ، فكوني منصفة وحنونة. أخلاقك و تصرفاتكِ كانتا تصرخان في أذن مغفل ، أصم رضخ لشر نفسه والأنفس الخبيثة التي ودت لو يكون بيننا سدا عظيما... أنا مجرد إنسان غبي تسوقه الأخبار المنقولة فلا أتبين إلا وأرمي بقذائف شكوكي مدمرا كل شيء ، لا استحق صفحكِ لكنني أعيش ألما لا يوصف في فراقك. أنا آسف على حالي.

« عروبة » سامحيني ، أنا أرجوكِ لأني عن غضب شككت في أخلاقك ، لم أكن شخصا يعتمد عليه. وخذلتك للمرة الثانية حين لم أقف معك وأنت بأشد الحاجة إلى.. »

توقفت قليلا ، تمسح دموعها ، وأكملت تقرأ..

بأمس الحاجة إلى أحد يسندك فلم تجديني عند حسن ظنك ..

« عروبة » عندما سمعت أن والدك قام بضربكِ أمام الجميع وأهانك وأنت بتلك الحالة ، تمنيت لو كنت حاضرا ، صدقيني. كنت دافعت عنك وكسرت عظامه قبل أن يلمسك.. لا تزال النار تستعر بداخلي كلما فكرت بجفائي ،

بتجاهلي لك. سأنتظرك غدا ، وإن لم تأت سوف آتي أنا أعدك ، وهذه المرة لن أخذلك.. »

ضمّت رسالته إلى صدرها ، تبكي بحرقة في صمت ، بعد أن تنزّلت عليها السكينة ، تتذكر بفرحة عارمة نجاتها من أخيها بلطف من الله قبيل دقائق:

«... ماذا تفعلين عند النافذة؟

شهقت وابتعدت إلى الخلف ، يتجه نحو النافذة مسرعا وأعاد فتحها ، والتفت هنا وهناك عسى يجد أحدا ، لكن لم يكن هناك أحد.

_استيقظت على صوتها تلتطم بالحائط يدفعها الريح ، أظن أن أمي نسيتها مفتوحة و...

_ ألم أقل لكم أن لا تفتحوها أبدا ، رؤوسكم كالحجارة.

ونظر إليها مطولا ، ثم انتهرها بعد أن أمرها بالرجوع إلى سريرها لتنام ، وغادر الغرفة..

انتظرت قليلا حتى اختفى صوت أقدامه ، ثم سحبتها من داخل كم فستانها بشوق... »

نامت وفي صدرها خبأت سعادتها ، تدق بين ضلوعها لتهبها عمرا جديدا وتولد « عروبة » أخرى ، أغمضت عينيها ونامت كالملائكة تنتظر الغد بفارغ الصبر...

******

عاد الصباح مشرقا ، تغرد على عتبته العصافير شادية تترنم بأصواتها العذبة ، وعليها ترقص عروبة فرحا ذات القلب المرهف. أتمت تجهيز محفظتها ، وجلست تنتظر قدوم والدها ، تدعو ربها أن يسمح لها بالذهاب إلى الامتحان. تتساءل في نفسها هل سيفعل. وهي هكذا حتى أطل عليها بوجهه المتجهم العابس ، يرمقها بتلك النظرات من رأسها إلى أنف حذائها ، وإذا أخوها يطل من خلفه يبتسم بخبث يمشط لحيته بأصابعه ، مما أدخل إلى قلبها الرعب...

******

الوعد...

كان سيصبح اليوم جميلا لو لم تقابلها بتلك الابتسامة الخبيثة ، برغم هذا لم تبال بها ومشت. مشت نحو كرسيها بتؤدة ، وككل مرة لا تطمئنها نظراتها ، مع كل ما لقيت منها من مكر وظلم آخر مرة ، وجب عليها أن تحترس. ومن يدري ، ما في جعبة الأيام من مرارة تتقيؤها في قلبها النقي. هكذا تشاغب الدقات ، يتجاوز بعضها بعضا ، ولم يطل عليها رسمه بعد...

عادت إلى بيتها لتغسل وتنظف كعادتها وتبارك ما تبق من يومها بقبلة من جبين أمها. أنهت شغلها ، وهمّت بالمغادرة لتراجع على عجالة لامتحان الظهيرة ، فالتقت عينها في عيني أخوها ، لم تحسب له حساب وسارت بجنبه باتجاه غرفتها تسرح بشيء ما..

« ... كانت تجري نحو الرواق بخفة ، كأنما غزالة في برية تلمع عينيها العسلية ، بعد أن أخرها والدها وهو يتناول الطعام ، فإذا بها تتراجع خطوتين ، وتقطع أنفاسها ابتسامة وسع لها كل ضيق في قلبها. كان واقفا عند الباب وقفته الشامخة ، يضع يديه في جيبي بنطلونه الأزرق قاتم اللون ، تنظر إليه بسرور وخجل قد شغفا بعضهما حبا. يبصر نورهما الأعمى. ولطالما كان أنيقا في

اختيار ملابسه ، يتقدم ناحيتها بخطوات مفعمة بالعشق ليطمئن عليها قلبه فلا يراهما أحد:

_لقد خفت عليك بالأمس ، كيف أصبحتِ؟.

تحاول أن تلتقط أنفاسها ، ينظر إليها ببصر أنيس..

_ وأين كنت هذا الصباح؟ بحثت عنك كثيرا فلم أجدك..

كيف حالك؟.

_أنا بخير مادمت كذلك.

ويغمز مشيرا إليها بالدخول ، فتحمر خدودها ، وتتسارع أنفاسها ، لتكلمه بصوت خافت:

_قرأت رسالتك.

_هل سامحتني؟.

أومأت برأسها ، ودخلت تجري مبتسمة فأنارت ربوع القسم ، وكانت تلك أول مرة يراها زملاؤها تبتسم.

مرت تلك الساعة تحفها الطمأنينة ، بعدما استغل تركيز التلاميذ وهرب إلى الخلف يراقبها عن قرب وهي بين الفينة والأخرى ترسل له أشواقها بنظرة..

كانت سعادتها تكفي لمائة سنة ، فتسعد أشقياء الأرض جميعا.

دق الجرس ، وخرج الجميع إلا « عروبة » و« فتون » التي قصدت البقاء لتفسد

اللقاء.

قدمت له ورقة الإجابة وغادرت ، سارع ليأخذ ورقة « فتون » وهمّ بالمغادرة ، مما أثار بركانا داخلها..

بخطى متسرعة يلحقها ، هامسا في أذنها:

_كنتِ فاتنة البارحة بشعركِ الأسود ، لقد سحرت قلبي بجمالكِ.

جمدت كلماته حركتها ، مقطبة حاجبيها ، في حيرة.. وفجأة فتحت عينيها واحمر وجهها ، وشهقت منطلقة تجري نحو الفناء.

_آه ، كم أنا حمقاء ، كيف نسيت حجابي؟.

قابلت الشرفة تنتظر ظهوره ، وسحبت دفترها حاملة ذلك المنديل.. وما إن رفعت رأسها حتى وجدته عند الشرفة ، دائما يأتي على الموعد. لم يعد يشعر بشيء حوله ، لا أحد غير دقاته الثملة وأنفاسه التي تخنقه ، والوحشة التي تحرق ضلوعه...

و« فتون » منشغلة تراقبهم من بعيد تتحدث بالهاتف وعينيها على « عروبة » ، لم يكن الاتصال مطولا فسرعان ما قطعته. رآها « أمازيغ » من حيث لم تره على غفلة منها ، فوجدها تنزع شيئا من هاتفها وكسرته ، ثم أغلقت هاتفها من جديد لترمق المسكينة بنظراتها القاتلة ، وتبتسم بمكر أقلقه..

حل المساء و« عروبة » قد عادت إلى بيتهم ، في غرفتها ووضعت محفظتها لتهم بتغيير ملابسها ، حتى دخلت عليها أمها تحمل لها كأس ماء ، وما إن حملته سقط منها ، حين أرعبها صوت الباب يلتطم بقوة..

_ آه يا إلهي لطفك..

اصفر لونها ، لتسمع أخوها يشتم ويصرخ مقتربا:

_ يا حيوان ، يا حقيرة أين أنتِ أقسم سأقتلكِ اليوم...

لم تفهم ماذا حدث ، هي لم تفعل شيئا ، تراجعت بسرعة تحتمي بأمها لكن ، لم تفلح فقد وصل لشعرها يسحبه منها ، صارخة:

_لماذا ؟ ماذا فعلت؟.

وانهال عليها بالصفعات ، اللكمات والركل ، لم يرحمها أبدا ، حاولت الفرار منه لكن بلا جدوى ، فقد كان قويا ، لم يحترم حتى أمه فدفعها على الجدار ، في محاولة لها بإنقاذها من يديه ، التي عبثا حاولت.

فلم تجد غير أن تحمل له مقعدا تضربه به فابتعد قليلا ، بصوتها الضعيف يكاد قلبها يتوقف:

_ملعون ، ملعون.

_تضربينني يا عاهرة..

بصقت عليه وراودها تعب شديد:

_ أنا عاهرة يا كلب؟ أو تنعت أمك التي ولدتك وربتك بالفحش يا حثالة

الرجال. هذا هو الدين الذي تتبعه؟ وتلك اللحية قد طولتها بلا فائدة كلحية الماعز. آه ، آآه. تفوه عليك ، فلتحل عليك لعنتي يا سعيد إلى يوم الدين..

ستقتلونها.

وانفجرت باكية تبكي خلفها ابنتها.

_ العني فلست أبالي ، لكنك ستندمين على حمايتكِ لعاهرة ، ستندمين...

تريدينني أن أصبح ديوثا حتى ترضي؟ تفوه على هكذا رضا ، مغضوب عليك أنتي لأنك لم تدفنيها بالبيت وتزوجيها ، أصبحت تخرج مع الرجال وتعشق. لكن حسابك سيكون عسيرا مع والدي ، أنتِ وابنتك الرخيصة.

حمل الكرسي الملقى على الأرض ، الذي أحس هو الجماد بوقع تلك الشتائم على أمه تحرقه ، ورماه على طاولة عروبة فتبعثر كل ما عليها وهوى على الأرض محطما ، كما تحطم قلب أمه وخرج من البيت.. تاركا أخته باهتة ترتعد ، تعيد كلماته في عقلها الذي لم يعد يركز على شيء ، خائفة على « أمازيغ » من أخوها المجنون أن يفعل به شيئا أو يقتله ، لا يهم غيره حتى نفسها...

تبكي بحرقة ، تختنق بألم ، تجثو على ركبتيها فتنحني لها أمها لتمسح قطرات الدم من وجهها الناعم ، وتضمها إليها..

_يا حبيبتي ، يا قرة عيني..

تبكيان ، وقد حاولت أن تقف لتساعد « عروبة » فلم تقوى على الوقوف بعد أن ضربها بشدة إلى فخذها بالعصا التي كان يحملها.. وأخيرا قامت وجلست

على السرير ، وأخذت برأسها لصدرها تمسح عليه:

_اسمعي يا « عروبة » ، أنا أثق بكِ. لن أصدق أحدا غيركِ ، وكلي ثقة أن لن تخطئي أبدا لأنكِ تعرفين أين تضعين قدميكِ ، أنت تربيتي محال أن تخذليني.

رفعت رأسها ونظرت إليها غير قادرة على النظر من عينها ، التي تضررت بسبب الضرب المبرح الذي تعرضت له ، وراحت تحكي لها عن « أمازيغ » من أول لقاء لهما إلى آخر لحظة.. لاحظت أمها أنها تبتسم عندما تذكره:

_يبدو إنسانا طيبا ومحترما.

_نعم ، نعم.

_ اسمعي يا بنيتي ، لا تزالين عند حسن ظني بك فلن أقول أكثر من هذا.. إذا كان هو الغريب سيحميكِ وهكذا كان وعده ، فكيف لا أحمي فلذة كبدي؟

وتعانقها بقوة ، تبكي بحرقة ، فتختنق ليباغتها سعال شديد:

_لكنه لن يحبكِ أكثر مني ، لقد تعرضت للظلم كثيرا منذ ولدتِ ، لا أريد أن تقضي حياتك في الضرب حتى تموتين قهرا أو يقتلوكِ ظلما.. إن كنتما تحبان بعضكما فليتقدم لخطبتكِ وأنا سأدعمك وإن رفضوه ، سأوافق عليه أنا رغما عن الجميع.

قبلتها على جبينها ، وذهبت تجلب لها معقما يطهر جروحها ، غير قادرة على حمل مفاصلها. ذهبت وتركتها تتنهد وتتمتم:

_« أمازيغ » فليرعاك الله..

أحست بالخوف على حبيبها ، وكانت تريد أن تخرج وتذهب لتطمئن عليه ، لكن لم تقدر ليظل قلبها وعقلها مشغولان به تدعو له.

رجعت أمها تمشي منحنية الظهر ، بخطى متثاقلة.. ووضعت المطهر على القطن ، ثم هوت به على جرحها الذي نزل عليه كحديد ساخن ، تتأوه من شدة الألم لا تقدر على فتح شفاهها:

_تعبت يا أمي ، أريد أن أرتاح..

سقطت من عينها دمعة ، وفي عقلها ترجع الذكريات:

« ..لا تسمحِي لأحد أن يكسر القوة داخلكِ ، أن يؤذي قلبكِ الطاهر ، يجب أن ينطق الصمت داخلكِ ، يجب أن تدافعِي عن حياتك. لستِ مجبرة على الصبر على هذا الظلم ، وبإمكانكِ التخلص من هذا العبء... »

_معك حق يا « أمازيغ ».

تختنق من جديد ، وتضيع منها الكلمات:

_تعال وأنقذني منهم...

ودست رأسها في صدر أمها تبكي بألم.

******

الصراخ يتعالى و يتعالى متقدما ناحية غرفتها ، تستغشي ثيابها حتى لا تسمعه ، عبثا تفعل فقد اخترقها ليأكل عقلها ويذهب تركيزها ، لابد أن أخوها أخبر والدها ، وصوت أمها اختلط بهم ، كان مميزا ، اقتربوا من الباب. فلم تقوى على الحراك من السرير ، وإذا بصوت صفعة تضرب في أذنها بقوة فترج قلبها رجًا ، جعلتها تقفز من مكانها نحو الباب تشدّ مقبضه لتفتح.

_ إنه لا يفتح؟؟؟.

بدأت تسمع صوت لكمات ، تضرب الباب بقوة،

_ افتحي الباب أمي ، افتحي...

_يا عاهرة هذا كله بسببكِ.

ابتعدت قليلا عن الباب ، وسقطت على الأرض مغمى عليها..

_ انهضي ، انهضي..

لم تكن تقوى على السماع ، تمتم بكلمات غير مفهومة. غاب لحظة وعاد ، ليأتي بدلو ورمى عليها الماء .شهقت أمها لما رأته فعل هذا ، تستيقظ بذعر لا تقوى على فتح عينها اليمنى ، كل شيء تورم في وجهها..

_البسي ستذهبين للامتحان.

خرج وتركها غير واعية لما يحدث ، صدمها الأمر فلم تكن تتوقع هذا بعد الذي حدث.

اقتربت منها أمها لتطبع على جبينها قبلة مطولة ، تمسح عنها الماء المنسكب على

وجهها بلطف ، تنظر إلى وجهها الذي تورم هي الأخرى. كانت رؤيتها لأمها بذلك الحال تقهرها مما جعلها تفكر بالانتقام ، فقط الانتقام...

******

هناك في الرواق حيث الكل ينظر إليها قد أشفق على حالها ، تمشي بصعوبة لا تقوى على حمل ساقها اليمنى المتضررة ، لا تقوى على النظر ، لا تقوى على التفكير ، لكن تحاول ، فتفكر وتفكر تبتلعها الهواجس كالدوامة ، لا تفكر إلا بشيء واحد ، ما إن رفعت رأسها حتى رأته من بعيد. وما إن لمحها فتح فاه غير مصدق لما يرى. نزلت عليها الرجفة يجري نحوها ، أحست بهلع شديد فسحبت نفسها سحبا نحو أول غرفة إلى يمينها لتختبئ منه ، توقف حائرا وتراجع خطوتين مستغربا في تصرفها. التفتت وسط زحام أنفاسها ، لتجد الجميع ينظر إليها فخرجت تحاول أن تستطلع إذا ما غادر ، وقد تنهدت بحزن ، تنظر إلى الحائط فيغيب عقلها ويأخذها لأمها...

«... كانت تفتح الباب بهدوء ظنا منها أنها نائمة ، فإذ تجدها مطروحة على الأرض ، فتصرخ فيقدمان إليها ، وإذا بهما يجدانها على ذلك الحال ، أما أخوها فغادرها كأنها قذارة ملقاة ، قرف النظر إليها وأما أبوها فنظر قليلا ثم ذهب بخطى متثاقلة ، فالوحش داخله لم يسكن لحظة واحدة..

سارعت والدتها إلى الماء ترشها بقليل منه عسى تصحو. وفعلا ، بدأت تستفيق تدريجيا ، وأسندتها إليها لتحملها بعناء:

_أمي..

تضع يدها على فمها محاولة إسكاتها:

_سسسـ ، لا تتحدثي..

ودنت من أذنها تهمس فيها قولا ، ما إن سمعته استعادت وعيها وفتحت عينها..»

_« عروبة » ماذا بك؟.

_ أه؟

نظرت فوجدته أمامها،

_ لا شيء ، لاشيء أستاذ شكرا..

وفرّت منه محاولة تجاهله ، مصدوما ينظر إليه تلاميذ ذلك القسم ، يرون مقدار الهلع الذي أصابه لما رآها بتلك الحالة.. يتبعها بعينيه اللتان امتلأتا دمعا ، يزفر ويعضُّ على سبابته غيضا ، شفقة عليها ، يكلم قلبه الموجوع ليواسيه عسى يطمئن ، وأي الكلمات قد تواسي قلبه المقهور لما يرى من ظلم ، تمشي بصعوبة بالغة لم يحد بصره عنها حتى دخلت القسم ودخل قسمه يتمتم.

« عروبة » يا حبيبتي ، تعيشين مع وحوش بشرية ، صدقا لا يستحقون وردة مثلكِ..

شريد العقل ، مكتئبا حزينا تأكله الحيرة. استغل التلاميذ حاله ضائعا في مكان آخر ، منهم من يغش ومنهم من يعتمد على عقله ، ومنهم من يغازل محبوبه. وآخرين شغلتهم همومهم ، والمستهترين لا يهمهم أمر في هذه الدنيا.. يستفيق على فوضاهم ، فيضرب المكتب ليهدأ الكل مرعبين. ينظر من تلك النافذة فترتسم صورة وجهها الجميل بعد أن تشوه بالكدمات..

******

يرمي كأسا بكل قوته على الحائط ، داخل تلك الصالة ، مما جعل الجميع ينظر إليه يشهقون من الصدمة ، تخنقه جدرانها بشدة ، يتكلم إلى نفسه بصوت عال بأمازيغيته ، مضطرب القلب:

_لماذا تهربين مني؟ لماذا يا « عروبة »؟ ولماذا ضربوكِ هاته المرة؟ لابد أن شيئا ما حدث حتى جعلكِ تفرين مني. أرغب بشدة في المجيء إلى بيتكم واختطافك ، هذه ليست عائلة ، هؤلاء أعداء..

يضرب بقبضة يده السرير..

_ لكن غدا سأعرف ، لن أسمح أن تهربي مني حتى أفهم ، لن أبقى مكتوف الأيدي وأنتِ تتعرضين للأذى والضرب المبرح بلا شفقة.

يدنو منه الجميع ليسأله عن حاله ، قلقين قد تجمعوا حوله ، فيطمئنهم بأنه على ما يرام ، شاكرا لهم اهتمامهم واستند على السرير بألم..

ماذا تفعلين الآن يا ترى؟؟؟.

كانت عروبة تفكر به طوال الوقت ، تسمع أخوها ينتهر أمها وينعتها بأقسى الصفات ، فتسرّها في نفسها...

_من اليوم ستأكل وحدها ، لن تأكل معنا تلك النجسة.

_ اخرس ، خسئت...

وما هي إلا ثوانٍ ، حتى ظهرت أمها تحمل صينية. تبتسم لها بألم.

_لماذا تتعبين نفسك؟ لا أرغب في الأكل يا أمي.

_أنت لا تأكلين جيدا ، انظري إلى حالك ، تزدادين نحافة.

طأطأت رأسها ولاذت بالصمت ، تنظر إليها أمها بحزن. تركت الصينية علّها تغير رأيها وتأكل ، راجعة إلى المطبخ أين كان يأكل ابنها مع والده كعادتهما ، يصدران تلك الأصوات التي يَقرف المرء سماعها ، يتحدث إلى والده:

_اسمع مني يا أبي زوجها قبل أن تفعل ما يجعلنا ندس رؤوسنا في التراب بسببها. اسمع مني فقط هاته المرّة ولن تندم.

أبوها ساكت يبتلع في ذلك الأكل ، وكان كلام « سعيد » يمر من أذن ليخرج

من الأخرى.

_ما رأيك في ابن جارنا « خلدون »؟ رجل تقي وذا دين سيسترها ويريحنا منها.

صدقني سنرتاح من أمرها ، فكر بالأمر ، هو صاحبي وأعرفه جيدا.

_أكمل أكلك.

كانت تتكئ على الجدار تائهة ، متعبة تفكر في الذي سمعته ، تفكر في حال ابنتها كيف سيكون بعد أن تسمع..

******

« .. دخل مسرعا يخفي كيسا تحت سريره ، وجلس يزفر ، يلعب بأصابع يديه في توتر:

_« عقيل » تعال للعشاء.. قفز مسرعا ناحيته وقعد على الكرسي؛

_تعجبني عندما تسمع الكلام ، جهز نفسك غدا سنذهب للريف لزيارة جدتك.

همهم كمن في فمه قول : لكن ، غدا امتحان البكالوريا..

_ليس أهم من جدتك.

_لنترك بعـ...

وإذا به يسكته بضربة على الطاولة اهتز ما فوقها ، وارتعدت فرائسه معها:

_أوَ تعصي أمري؟.

قفز من المقعد يجري نحو غرفته يتمتم مع نفسه ، بعد أن أغلق الباب على نفسه

مصوبا نظره تحت السرير... »

كان القمر مكتملا في تلك الليلة ، والأنين بكل مكان ، أنين لا يتوقف. تزهق الأوجاع أرواح الكلمات ، فتموت قبل أن تخرج من تلك الأفواه التي التصقت من شدة الصمت ، تختار الأحزان البؤساء باحترافية. الوجع كان قاتلا ، لكن لم يظهر الندم على محياه ، يهز نفسه ذهابا وإيابا ، غير مبال بأحد.. وأخيرا ، بردت الجمرة التي استعرت لسنين لم تغادر حتى أخذت أعز ما يملك ، هدوءه ، براءته ، و تميزه فلم يكن يشبه أحدا أبدا.

هناك في الشارع يقبع مبتسما ، منتصرة روح الشر داخله ، منكسرة الطيبة في ذلك الظلام الدامس.

هناك في ذلك الشارع ينام وقد أخذ حقه بيديه ، لأن القدر تأخر قليلا ، هكذا كان يعتقد...

هناك ينام تحت ضوء القمر ، الوحيد الذي يفهم البشر في ليالي وحشتهم.

******

أصبحت تلك الأروقة تحن لـ« عروبة » من كثرة استنادها عليها إذا ما مشت ، شاحبة بثوبها الأسود ، وخمارها الأخضر تنتعل حذاءها الصيفي قد بليت روحها ولايزال هو يافعا ، ترفع عينها وقد زاد تورمهم لتصطدم بعينيه اللتان أصبحتا بلا بريق ، تستلقي تحتهما هالات سود. إنه الأرق ، العدو الذي لا

يفارق البشر ولا يرحمهم عندما يتوسلون رحمته...

تمضي إلى حجرتها متجاهلة إياه للمرة الثانية كأنها لم تره ، لكن قلبها كان يبصره على الدوام.

تمر الساعة ثقيلة ، تبتلع مرارتها بعسرة بعد أن كانت تمر لا حلاوة مثلها. تنظر إلى « فتون » ، فإذا ببالها تقفز فكرة. فأشارت إلى الأستاذة الحارسة ، كانت تبدو طيبة ، تتقدم باتجاهها:

_عفوا أستاذة هل استطيع الخروج؟.

_لماذا؟.

_أحتاج الحمام لو سمحتي.

نظرت قليلا ، فصدقتها لأن وجهها المشوه بالكدمات أصدق قيلا من كل الكلمات..

تشير إليها بالخروج ، بصعوبة تتحرك ، تتقدم لتساعدها ، فتبتسم لها « عروبة » امتنانا وتشكرها. قفزت عيون « فتون » من مكانها تود اللحاق بها ، لكن فشلت.

_ممنوع خروج طالبين معا ، عندما تعود اذهبي.

كانت الصدمة قوية ، والتهمتها نار القهر والفضول تود لو تقتفي أثرها لتعلم ما قد تفعله ، فلم تكن تتوقع بعد ما حدث أن تملك حظا للعودة إلى الدراسة.

وفي الخارج « عروبة » تحاول الإسراع ما استطاعت لتصعد الدرجات نحو الطابق العلوي ، تتجه نحو اليسار باتجاه أحد الغرف ، سمعته يترنم بصوت حزين ، نظرت فوجدت الباب موصدا فطرقته قليلا.

قفز قلبها من مكانه عندما سمعته يأذن لها بالدخول لكنها لم تجب ندائه ، وما هي إلا ثوان فتح الباب ، وفتح عينيه معه مصدوما فرحا. خرج وأغلق الباب خلفه ، يتفحصها بعينيه اللتان ترقصان سرورا يهمس لها:

_« عروبة »؟ من الذي سبب لك كل هذا الكم من الخدوش والكدمات؟ لماذا كنت تتجاهلينني ماذا فعلت لك أنا؟ هل حدث أمر لا أعلمه؟.

لم تجبه بحرف ، بل كانت تشبع عينيها من النظر إليه لتدخرهم في أيام يزداد فيها شوقها إليه ، ويغيب كيانه عنها. غيرهما لا أحد كان في ذلك الرواق ، من شدة السكون تسمع همس الحشرات وتراقص نسمات الهواء.

_ تكلمي أرجوك فصمتك يزيد من توتري.

ذلك الحزن البادي في صوته ، جعلها تبكي فتخنقها دموعها ، أمسك بذراعها يود لو يضمها إليه بقوة. يضغط عليه شوقا ، خوفا فتأوهت من الألم ، فجسمها كله كان يوجعها:

_تحدثي ، لا تسكتي سوف أُجن أقسم لك..

_سمعَت أمي أبي يأمر أخي بتكليف أحد داخل الثانوية ليراقبني. لا أدري من

حرضه علي ، لكن مؤكد أنه يكرهني بشدة ، لقد ضربني لأن شخصا رآني مع أحدهم وأني أعشقه. أنا لا أفهم من له غاية من هذا كله؟؟.

صمتت قليلا ، وبقي هو يفكر حتى خطرت في باله « فتون » يوم كانت تكسر شيئا ما في الساحة ، ترمق « عروبة » بنظرات قاتلة ، لكنه سرعان ما أبعد تلك الفكرة كي لا يظلم أحدا.

_ هل من الممكن أن تكون « فتون »؟.

نظر إليها كأنها كانت تجول داخله ، تفكر بعقله ، مما أثار الأمر في نفسه...

_ اسمعيني جيدا ، نحن لم نرى أحدا ولم نسمع. لكن وجب علينا أن نحذر من « فتون » ، فليس لكِ عدو غيرها على حسب ما أرى ، وأيضا حسب ما أدلى به المدير من مدائح تسر سامعها حقيقة ، فمحال أن يكون لكِ أعداء هنا..

_ أنا لا أريد أن تتعرض لسوء من أخي ، مادام وضعتني في بالها ووصلت إلى أخي فعلا ، فستفعل كل شيء لتؤذيني ، وأخاف أن تتأذى بسببي. فلتنسني وأكمل حياتـــ...

وانهمرت دموعها لتقطع تلك الكلمات الحادة التي كانت تغرس في قلبه بقوة ، يسيل على تلك الشامة دمعها الغالي على قلب « أمازيغ » فتغسلها ، مما أغضبته آخر جملة قالتها:

_هل ستسمحين لهذه الفتنة بأن تفرق بيننا ؟!

_سأكون أنانية إذا لم أفكر بحمايتك من أهلي..

دنا منها بغضب يطبق فمها بإبهامه ينظر إلى عينيها ، لا تفصل بينهما سوى إصبعه ، في غاية الإحباط ، يكلمها بصوت خافت:

_أرغب في قتله لأنه فعل بك كل هذا.

_ ابتعد عني ، ماذا لو رأونا؟.

_ لا يهم أحد لأني لن أخاف منهم ، لا تتصورين حجم الألم الذي بداخلي منذ أن رأيتك على هذا الحال ، أنا قوي وسوف أحميكِ منهم أعدك اصبري فقط حتى نهاية العطلة.

_ ماذا ستفعل؟.

امتلأت مقلتيه دمعا ، فأسقطت الدموع من عيونها لما رأته منهارا هكذا ، تسحب أنفاسه إليها سحبا إذا هجرتها أنفاسها ، وما إن رآها تبكي حتى أخذها إلى صدره ، واحتضنها بقوة ، تشهق غيضا داخل روحه المتألمة بصمت ، أن يسمعها أحد..

كانت تلك المرة الأولى التي أحس فيها بشعور الانكسار ، مقيدا لا يقوى على فعل أمر غير السماع والتبصر، حتى حين تركته حبيبته لم يتألم بنفس الطريقة اليوم ، سحبت نفسها بقوة وقد بللت قميصه بدموعها الطاهرة ، وهمّت بالمغادرة فأمسكها من يدها ، انتظري:

_خذي.

_هاتف!! لا ، لن آخذه..

_ستأخذينه ، لقد أعددته بحيث يكون صامتا على الدوام ، فاطمئني.

_أرجوك ، أخاف.

_تشجعي ، لا أستطيع أن أتحمل البقاء طوال العطلة تستعمرني الأفكار التي تنخر هدوئي دون أن أتحدث معك ، ماذا لو ضربوكِ مجددا وأنا بعيد عنك؟ ستكون آخر عطلة لك في بيتهم ، أقسم لكِ.

ارتسمت على وجهها المتعب ابتسامة فأعادت النضارة إليه ، سكت قليلا عندما أحس بجلبة خلف الباب ، فتحه على حين غفلة بعد أن اختبأت خلفه ، فوجد تلميذة تحاول استراق السمع ، انتهرها بقوة فعادت إلى مكانها تجري محرجة وعاود غلق الباب يكلمها بصوت خافت.

_اتصلي بي عندما تحتاجينني..

_إنهم يفتشون غرفتي صباحا ومساءا ، لا تزيدهم الأيام إلا شكوكا ، هم يشكون حتى في خيالهم وسيكتشفونه..

_خبئيه فأنا أعلم أنك ذكية ، حسنا؟.

لم تجد بدا غير أن تقبل فأخذته تومئ له بالقبول، كانت تشعر براحة لا توصف بعد أن رأته وأعلمته بحالها.. نظرت إليه بنظرات الاعتزاز والفخر بوجوده قربها وغادرت ، تاركة إياه يسبح في بحر الأسى والحزن..

******

اذهبي إليه ولا ترحميه ، افتكي منه جبروته بأنيابك ، احرقي قلبه الأسود المتفحم ، اعتصري جسده المنتفخ ولا ترجعي إلا وقد أخذت بثأري منه ، هيا أيتها الجميلة..أغلق الباب بهدوء ، وقعد عنده ينتظر. وما هي إلا لحظات حتى سمع صراخ أبيه يتلوى ، يناديه:

_« عقيل » أنقذني ، « عقيل » ، « عقيل ».. آه يا رب ، يا رب. عقيـ...

كان يشهق بالبكاء ، يجهش كالمرأة ، وصوت لطم خدوده يتعالى. كان جبانا عكس ما كان يبديه لولده ، بدأ صوته يتلاشى تدريجيا ، و« عقيل » يضحك بهستيرية خلف الباب ، يوقفه بكاء حاد بين ضحكة وأخرى ، وينطلق نحو غرفته ممسكا برأسه كمن يحميه من ضرب خائفا ، قد انفلتت كل مشاعره وتضاربت ببعض.. تجمع الجيران خارجا أصواتهم تعلو ، ينادون جارهم ، ما من أحد ليجيبهم ، فيدلهم أحدهم إلى خلع الباب ، وفعلا يسقط طريحا بعد دقيقة ، منتشرين في بيته ، نحو الطابق العلوي ، يجرون في الغرف الخالية ، وإذا بأحدهم يصرخ مصدوما متسمرا مكانه ، فأسرعوا ناحيته:

_لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. كان جارهم « محسن » ملقى على الأرض ، في فمه حية تشرب من سموم جسده ، شاخص البصر. فيقول أحدهم:_أين « عقيل »!؟.وإذا بضحكاته تقطع تساؤلاتهم وصدمتهم ، كانت تتنزل من الطابق الأعلى تزحف نحو آذانهم بحسرة وألم ، فيركضون نحوها..

الانتقام من رحم الغفران

_ بالبطل أهلا ، أهلا.

مبتسما يحتضنه بقوة يربت على ظهره ، و إخوته الصغار يصرخون حوله يريدون احتضانه هم أيضا:

_ مرحبا أبي ، لقد اشتقت إليك.

_ وأنا أيضا يا بني ، هات عنك الحقيبة سأحملها.

_ لا أبدا.

_ مازلت قويا يا رجل ، انظر.

وحملها على ظهره ، يمثل عليهم أنه لم يقدر ليضحكهم ، واستطاع فعلا زرع الضحكات في قلوبهم ، إلا قلب « أمازيغ » الذي كان معلقا بروح أخرى. يبتسم مكرها ، ينظر حوله وقد كبرت صغار الأشجار لتصبح فتية ، وتلك الأزهار الناعمة تروح ذهابا ومجيئا تهرب من النسمات العليلة. وبساط الحشائش الأخضر الزاهي يشفي من السقم ، صافيا نقيا ، يتأمل لو كانت « عروبة » معه هنا وتشاركه هذه الفرحة .

******

في غرفته مستلقيا يفكر بها ، ينتظر ردّها عن رسالته التي كتب لها فيها يطمئنها بوصوله معافى ، يحكي لها عن شوقه إليها الذي يزداد كل يوم. لكنه سينتظر ساعات وساعات حتى تفتحها وترد بصعوبة بالغة ، وخوف قد هزّ استقرارها منذ أن أخذت منه الهاتف. يقطع هيامه ، خليله « يوبا » لا تسعه الفرحة من رؤيته ، يتبادلان أطراف الحديث حتى حل عليهما الليل. كل برهة يحمل هاتفه ويفتش عن شيء ما ثم يضعه ، مما أدخل الريبة والفضول في نفسه ، برز التغيير في محياه ، يسأله:

_ أراك تفتش هاتفك منذ أن دخلت إليك. هل تنتظر مكالمة مهمة؟!.

نظر إليه فإذا به يرى في عينيه البراقتين ألف حكاية وحكاية يرغب في سردها ، لكنه لا يقوى فيصمت.

_ هل ستخفي علي! واضح يا رجل ، تفضحك عيناك. هيا أخبرني هل حصلت على حبيبة جديدة؟.

ولأنه كان صديقه الوفي المخلص قام بسرد كل شيء له ، فاتح فمه لا يقوى على الكلام.

_ تُحب عربية؟! لابد أنك تمزح.

_ تُحب عربية؟ لابد أنك تمزح..

يقوم بتقليده بغضب شديد:

_وماذا إن كانت عربية؟ أليست بشرا مثلنا؟؟؟ لم هاته الصدمة البادية عليك كأنك رأيت شبحا؟.

لم يشح بناظريه عنه ، كالمصدوم و « أمازيغ » لم يعد يهتم لشيء أو يخيفه شيء:

_ كيف تسألني وأنت أكثر واحد يعرف معنى عشق عربية! على الأقل في قريتنا. يا رجل حتى داخل هاته الولاية الكبيرة لن يزوجوك إلا ببنات أقربائك أو قريتك فقط ، ماذا بك؟ تريد أن تدمر مستقبلك؟.

_ لن أهتم. أريدها يا « يوبا » أريدها ، هي كل مستقبلي...

يسرح في السقف بقلب غائب عن هذا المجتمع المتعصب ، الذي نجا منه وتخلص من أفكاره الهدّامة...

_ و ماذا عن والدك هل فكرت فيه؟! هل سيقبل؟ من المستحيل.

ينظر إليه.

_ سأقنعه ليقبل ، لقد وجد من يقوم بتثبيت منصبي ويصبح رسميا. حالما أنتقل سأقنع والدي بأن يذهب معي لطلبها من أهلها ، أولئك الوحوش. وسأحضرها لتعيش معي هنا..

_ أنت تحلم ، أنصحك بأن تعدل عن الفكرة ، وتساعد الفتاة دون الارتباط بها.

قام وقعد ينظر إليه بغضب:

_ أنت تملك دماغا يابسا ، عنيد للغاية ، افعل ما تريد لكن لا تقل لي فقدت أبي

يوما ما ، سأكتفي بمساعدتك فقط والوقوف إلى جانبك.

ابتسم بحزن واستند على الحائط:

_ حتى إنك لن تستلم راتبك إلا بعد انتهاء الموسم الدراسي ، أي بعد حوالي أربع شهور أو حتى أكثر من يدري ، كيف ستعيشان؟! أم أن الحياة حب فقط ونظرات وقبلات و..

_ تظن أنني سأتزوجها لأجل ما ذكرت؟! أنت تعرفني جيدا. افهم أنا أحببتها لبراءتها أحسست أنها بحاجتي ، أريد أن أحميها ، افهم. هي لن تفكر كيف ستعيش مادامت ستصبح بطمأنينة لا يضربها أحد ، أو يرعبها أحد ، كما يفعل والدها. وأنا لست غبيا أدخر بعض المال وسأتدبر أمري ، فقط رؤيتها سعيدة يا « بوبا » تسعدني.

_ حسنا ، حسنا.

في الوقت الذي كان فيه منكسرا مقهورا ، كانت زوجة أبيه خلف تلك الجدران تتجسس ، وحانت الفرصة لتقتل يوسف في قلب يعقوب ، بعدما سمعته من الأخبار الطازجة. وفي قرية « عروبة » البعيدة جدا ، في بيتهم التعيس ، الحياة راكدة عكس ما يعيشها « أمازيغ ». زيارات ، حفلات ، وتحضيرات للربيع الأمازيغي. الذي كان حاضرا بجسده غائب القلب والعقل.

يبحث ويبحث ، عن حل يجمعهما دون أن يفرقه عن والده.

كانت في غرفتها جالسة على الأرض توضب ثيابها وتضعهم داخل الخزانة ،

وهي على هذا الحال حتى باغتها أخوها:

_جهزي نفسكِ.

لماذا قد تجهز نفسها هذا أول ما خطر على بالها ، التفت مغادرا ، فلحقت به أمها لتستعلم خائفة أنه ينوي شرا:

_ لماذا تجهز نفسها؟!.

_ صاحبي سيأتي مع أهله ليروها ، لقد وافق أبي أخيرا على تزوجيها.

أوقعت ما في يديها على الأرض وشحب وجهها لما سمعته.

_ لماذا لم تستشيروها؟.

_ ولماذا قد نستشيرها؟ يجب أن تحمد الله لأنه هناك من سيتزوجها.

_ اخرس ، هو من حظي بهذا الشرف ، لكنها لن تتزوج به إذا لم ترضى بذلك.

_ سوف نرى.

تسمرت مكانها لما وصلها حديثه قبل أن تصل أمها ، دخلت عليها تنظر إليها نظرة الموتى ، تمشي مصدومة ناحية الكرسي ، وتجلس بلا وعي ، تجري أمها نحوها بعدما تأكدت أن ابنها خرج:

« عروبة » ..

_ سوف أقتله وأبيه وصاحبهم معهم وكل العالم.

وتنفجر باكية بصوت عال ، تعانقها أمها بوجع:

_ أرجوك لا تبكي.

_ قولي له ، لن أتزوجه ولو قطعتني إربا ، إربا. لابد أن صاحبه وحش مفترس مثله ، آه. أمي لماذا أنجبتني؟ لماذا؟.

_ اهدئي ، « عروبة » يا قرة عيني ، أعدك لن أسمح بهذا الزواج أن يتم.

تمسح لها دموعها الغالية على قلبها ، وتنهض مسرعة نحو خزانتها لتسحب الهاتف وتتصل به ، فلا يرد.

_ أين أنت هل تركتني أيضا؟.

فتعانق هاتفها وتستلقي على السرير بحزن وأسى شديدين ، تراقبها أمها بحسرة.

******

في تلك الحدائق المخضرة ، تجمع الأهالي مع بعض ليحتفلوا بالموسم الربيعي الجديد ككل سنة ، وهذا إحدى المناسبات الأخر التي لا تقل أهمية عن غيرها عند الأمازيغ. كانت الموسيقى صاخبة جدا وأصوات الأطفال يلعبون ، يشدون ، وزادتهم ملابسهم المزركشة جمالا ، وحلي الفضة التي زينوا بها جباه الصبايا ، تعلو على محياهم البسمات ، تحمل النسوة بأيديهن سللا ملئ بالأكلات التقليدية ، بلابسهن التقليدي العريق الحامل لذكريات الماضي المجيد. ولأن الجو كان مكتظا عامرا لم يسمع « أمازيغ » رنين هاتفه الذي لم يتوقف أبدا... هكذا الحياة قاسية ، لا تزال طريحة سريرها تبكي حتى انتفخت عيناها. دخل والدها مع المساء الحزين ، وتوجه إلى غرفتها فأظلمت عليها

كسماء تنذر بإعصار قادم:

_ ما هذا؟ ماذا تنتظرين؟ لماذا لم تجهزي نفسك؟.

تنظر إليه تود أن تقول شيئا فتسبقها أمها.

_ « عروبة » غير موافقة على هذا الزواج.

_ نعم ، نعم؟ وهل هذا بمشورتها؟ تعالي إلى هنا يا كلبة.

وأمسكها بقوة من ذراعها.

_ سوف تلبسين رغما عنك وتخرجين إليهم ، لا دراسة بعد يومنا هذا ، يوجد بيت زوجك وطاعته..

رماها على السرير ، وخرج ليغيّر ملابسه فلم يتبق إلا قليلا على مجيئهم. تبكي دون توقف تشهق فيزفر صدرها بقوة كأنما سيتمزق ، تخنقها بين لحظة وأخرى الحسرة بأنين موجع في آذان السامعين.

_ سوف تمسحين تلك الدموع الغالية يا حبيبتي وتسرّينها في نفسك ، وبعدها سنجد حلا معا ، أفهمتِ؟.

******

الجو اكتئب ، والحسرات القاتلة تقفز في قلبها ، بين تلك الجدران التي اسودت في عيونها ، لا تكاد الأرض تحملها من ثقل خطواتها التي كانت تقع عليها كجمرة حامية. تمشي كأنها جسد بلا روح ، يدخلها والدها إلى تلك الصالة حيث كان جالسا كثعلب ماكر ينظر إليها بتلذذ ، بتلك العيون الماكرة التي

تدعي العفة ، بلحيته الطويلة المخضبة بالزعفران التي كأنما نار تشتعل من تحتها:

_ ارفعي عينيك ليراكِ.

لم تستجب له ، فصرخ فيها بغضب: ارفعي...رفعت عينيها اللتان كانتا تقدحان شررا كوحش كاسر تود لو تفترسه ، وهو لا يهمه شيء ولا حتى مهتم ليعرف سبب انتفاخ عينيها الواضح للعيان سببه البكاء. وحتى نظراتها التي كانت تنفر منه مشمئزة ، مستمتعا بجمالها كذئب يتلذذ بفريسته ، لن يستغرب الصراخ على فتاة أمام الضيوف هكذا ، لأنه نسخة عن أخيها الوحشية مع أخواته هو الآخر ، فهم يعتبرون الأنثى عار ، خلقت لتخدم وتعامل كالدواب. وكل هذا بزعمهم وصايا من دين لم تحدث في الأولين. لم تقوى على المكوث طويلا فحملت نفسها ، وخرجت مسرعة دون أن يصرح بهذا والدها ، فأحس بالإحراج منهم منذرا لها بعقاب شديد في نفسه القاسية.

*****

حمل هاتفه ، في وسط ذلك الزحام يمشي ، ليخلو له الجو ويتحدث مع محبوبته ، يمشي دون توقف وفجأة لم يحرك ساكنا:

_ يا الهي لا. لقد اتصلت كثيرا ولم أسمعه.

يتساءل عن سبب ذلك العدد الهائل من المكالمات الذي أخافه. لم يدري ما العمل ، فأسرع دون تفكير ليعاود الاتصال بها ، لكن عبثا فعل لأنها لم ترد. هنا

زاد قلقه وتضاعفت نبضات قلبه ، وتباطأت أنفاسه التي نشرت الوهن في قدميه مما جعله يقعد في مكان قريب. ينظر للجمع المستمتع بتلك الموسيقى ، التي بدأت تختفي من أذنيه لتبقى مشاهد متباطئة. نظر لهاتفه مجددا ، وجد رسائل فسارع إليها لكن اتصالا منها قطع سبيله إليهم.

فرد بسرعة:وأخيرا...

فإذا به تفاجأ بصوتها تتعارك معه كأنما أحد يخنقها بقوة ، لا تقوى على إخراج كلمة مكتملة ، فتخونها عباراتها عن كل العبارات التي تنوي قولها. أحس باختناق هو الآخر.

_ ماذا بك يا حبيبتي؟!.

وبدأت تروي له ، في كل جملة تقولها تشعل النار بداخله ، حتى انفجر بالصراخ بغضب شديد ، لفت صراخه « يوبا » ، فأسرع نحوه.

_ « أمازيغ » ماذا بك؟؟؟.

_ سيزوجونها ، سيزوجـ...

_ ماذا؟.

_ « يوبا » ماذا سأفعل؟.

ووضع يديه على رأسه من القهر.

_ اهدأ يا رجل ، فهذا أمر طبيعي. لن أتوقع عكس هذا من عائلة مجنونة كما وصفت لي. قلت لك اتركـ.

_ اخرس ، اخرس. أنت لا تفهمني ولن تفهمني أبدا ، لن أسمح لهم بذلك ، سأعود..

_ إلى أين؟ انتظر يا مجنون ، لقد أخذت عقلك هاته الصبية.

_ نعم ، ولن أسمح لهم بأذيتها أكثر ، هي ملكي ، ملكي وحدي...

_ سوف يقتلونك.

_ فليقتلوا لا يهم.

_ سوف أخبر والدك ، على الأقل يمنعك من التهور.

أخذه « أمازيغ » من طرف قميصه لما سمع قوله ، وسحبه إليه بغضب.

_ أخبره ، ماذا تحسب؟ أني سأخاف وأدعهم يربطون حياتها بوحش آخر؟.

_ حسنا اهدأ. سوف نجد حلا معا ، أنت فقط تحلى بالصبر.

_ دبِّر لي سيارة.

_ لماذا؟ قلت لك أ...

_ سوف أفعل أنا ، ابتعد..

ومشى غاضبا ، ينظر ، إذ به يلتقي بوالده الذي كان خلف « يوبا » ، فتراجع قليلا يتساءل هل سمعه؟!.

******

في المطبخ « عروبة » مع أمها جالسة ، غائبة عن الوعي ، تستمع إلى والدها الذي بدا متسامحا هاته المرة بعدما تمت الموافقة وأعطى كلمته للرجل ، يتحدث لأمها.

_ أخبريها أن الخطوبة ستتم يوم الخميس القادم ، والفاتحة بالجمعة.

سمعته ، فاستشاطت غضبا ، ونظرت إلى السكين على المائدة. وبين تلك الأشجار يركض متجاهلا والده متجها نحو غرفته ليأخذ بعض الأغراض:

_تعال إلى هنا. « أمازيغ » ، لماذا لا تجيبني؟!.

_ الآن أدركت أن « ثنينة » كانت صادقة حين أخبرتني أنك تصاحب فتاة عربية.

توقف والتفت إليه كبركان ثائر:

_ ماذا؟ ما علاقة « ثنينة »؟ هل كانت تتنصت علي؟!.

_ إذن هذا صحيح؟.

واحمرت عيناه غضبا،

_ دعني أشرح ، لأنها لم تنقل لك كل الحقيقة.

_ ماذا ستشرح لي ، أنني بعثتك لتعمل فرجعت عاشقا؟ تخالف تعاليمنا و تتحالف مع عدونا علينا؟!.

_ من عدونا يا أبي؟ هناك السيئين وهناك الجيدين. لا يا أبي صدقني ليسوا أعداء هي مجرد أكـ...

_ ليسوا أعداء؟ من الذي يسمعنا الشتائم ويحتقرنا؟ نسمعها تهطل علينا كل يوم ، لا يضعون لنا اعتبارا و...

_ كذب ، كذب. صدقني أنت قلتها نسمع فقط ، ولكننا لم نرى. يعني قد يكون الخبر صادقا وقد يكون كاذبا..

_ اسكت ، لم تعد ولدي الذي أحبه لقد تغيرت.

_ لم أتغير نحو الأسوأ ، بل نحو الأفضل. أنا من عاشرتهم ، وأنا عاملتهم بتكبر بادئ الأمر ، أنا من قسوت عليهم وأنا من كان يحتقرهم. لكنهم عاملوني باحترام وأدب.

_ لقد سحروا عقلك.

_ أبي ، أبي.

_ لا تناديني أبي ، لست بأباك.

_ إنها شائعات ، فتنة. ففي كل قوم أشرار ، لن تجد كل الأقوام كاملة ، حتى وسط هذه الولاية لا نتفاهم ، لا في عادات ولا في تقاليد. نرفض التزاوج من غير بناتها ، صدقني الاختلاف قائم ويجب أن نتعايش ولا نسمح لبعض الفئات الحاقدة أن تجعلنا نظلم الأبرياء ، ما همّنا بمن يشتمنا؟ الناجحين دوما لهم أعداء ، علينا فقط الدفاع عن ما نؤمن به دون الإنقاص من الغير..

_ هكذا إذن.

دنا منه ، فابتعد والده مشيحا عنه بوجهه:

_ لا فرق بيننا. عندما عرفت أنهم حتى بينهم تفرقهم العصبية ، تأكدت أنها قضية عادات اكتسبوها لا غير. ولن تكون العصبية طريقة فعالة لحل المشاكل ، هذه الفرقة والنقص داخلنا نملؤه بالتعصب على غيرنا ممن يخالفنا ، لم؟ دون نسيان أولئك الذين يحاولون استغلالهم لمصالحهم ، ونحن نصدق كل شيء نسمعه دون أن نحاول أن نتبين منه ، وهل سنقف عند كل كلب ينبح خلفنا؟. دعنا نعيش حياتنا ويكفينا أننا نؤمن بعرقنا ولغتنا ومعتقدنا...

_ اسكت ، اسكت. قلت لك سحروك.

_ أبي ، هل تؤمن بخرافة السحر وأنت العاقل المثقف؟ وإن سحروني لماذا عدت إلى هنا كنت بقيت خادما لهم.

نظر إليه نظرة غضب لم يعهده عليها من قبل ، كانت أول مرة يراه هكذا.

_ أبي هاته الفتاة مختلفة عنهم ، لا تحكم عليها قبل أن تراها ، ستحبها أقسم لك.

وإذا بصفعه قوية تهوي على خده ، جعلت إخوته يجرون نحوه ليعانقونه. كانت تتوجع زوجة أبيه حين ترى أولادها يكنون كل ذلك الحب لأخيهم ، وبرغم صغر سنهم لم تستطع تحريضهم عليه ليكرهوه وهذا هو ما ألهب النار في قلبها.

******

تقدمت عروبة بخطوات ثابتة نحو الخزانة تتفحص الباب بعينيها إن كان هناك أحد ، تدخل يدها خلف الخزانة لتحمل الهاتف الذي لم تجد له مكانا غيره ، ألصقت مغلفا هناك وأخفته ، حيث لن يفكر أحد بالبحث هناك ، حملته ومشت باتجاه السرير تفتش داخله عسى تجد منه خبرا يطمئن قلبها ، فقد تأخر عن آخر مرة بعث فيها رسالة أنه سيصل إليها خلال ساعة فقط.

تنظر إلى ساعة الهاتف ، كانت تشير إلى الخامسة مساءا ، والجو قد تعكر صفوه. سهت قليلا فإذا بصوت أبيها يمزق سهوها ، فتجري لتخبأ الهاتف ، ترتعد مفاصلها. ترى ما سببه؟!.

*****

قتلت أبي

في تلك الطريق الخالية يقود السيارة ، تائه يسترجع كلمات أبيه التي نزلت على قلبه كنصل حام. بين الفينة والأخرى يمسح دمعة تنزل على خده بحرارة ، يحدث نفسه يؤنسها ويخفف عنها ذلك الضيق الذي خنقه:

_ أنت بحاجة للوقت يا أبي ، أعلم أن بداخلك روح طيبة ، ستتعود عليها يوما ما وستحبها كما أحببتها أنا. أما تلك الأفكار السلبية التي أخذناها من المجتمع ومن أهالينا ، والتعاليم الخاطئة المغروسة في دماغنا لن تزول بين ليلة وضحاها ، بل تحتاج لمزيد من الوقت لترى العالم بشكله الحقيقي لا كما نقل ألينا..

نظر في مرآة سيارته الجانبية ، عسى هناك أحد ورائه ، فيأخذه بصره إلى خده الأبيض الذي ارتسم عليه آثار يد والده ، وإذ تحوم بذاكرته لحظاته الأخيرة مع والده ، فيتنهد بقوة...

« ... أمسك بخده ، يتنهد بقهر ناظرا إليه يعتصره الحزن:

_ لا يا أبي ، لن تنال شيئا بهذا الحقد ، أهل الفتنة يعيشون حياتهم والأبرياء يدفعون الثمن ، أما نحن نعينهم على ذلك بنفورنا منهم ومعاملتنا لهم بقسوة لا يستحقونها ، أبدا لن أرضخ لهم ، فلا داعي لكل هذا. أنت إنسان طيب لم تظلم أحدا في حياتك ، فكيف تظلم إنسانة بريئة لأجل فئة خسيسة في قومها تريد

إفسادا في أرضنا الطاهرة ، ومن يدري ربما حتى منا من له غرض وراء هذه الفرقة ، هل هكذا ربيتني؟ أن أحكم على الآخرين بغير علم أو حتى معاشرة؟.

_ أنت ولد أرعن.

_ أرعن نعم. عندما كنت أصدق ما يقال وأحكم على أمة بفعل جاهل فاسق ، أنا لست بكاذب أو لي هدف وراء ثنائي عليهم ، ولم قد أكذب على والدي حبيبي وهو أعز ما أملك؟ وفي ماذا سينفعونني إذا امتدحتهم كذبا وخسرت أبي؟ لقد عشت معهم ، ورأيتهم وأنا هو الذي ينقل الخبر إليك بكل مصداقية ، ليس خبرا ملفقا في جرائد يملئون بها الصفحات أو أخبارا على قناة تلفزيونية، أو حتى صفحات مواقع التواصل الاجتماعي. وما أسهل التلفيق في زماننا هذا... صحيح هناك من يكن لنا العداوة لكن بسبب الأخبار المغلوطة لا غير ، ونحن مثلهم لهذا سنعذرهم ليلتمس لنا الغير الأعذار. وإن حقا كان بيننا وبين فئة معينة عداوة وغل ، فما دخل الباقين؟ أنا أحببتها لأنها تعيش لنفسها فقط ، سعيدة بأوقاتها معي لم يهمها شكلي أو لوني ، ولا حتى اللغة والعرق. هي تريد أن تعيش بهدوء وسكينة فأعطها فرصة لتريك كم أنت مخطئ بالحكم عليها هكذا ظلما وزورا ، إضافة إلى الحياة البائسة التي تعيشها داخل أسرتها.

كان والده إنسانا طيبا ، لكن الكلمات التي سمعها من السيئين وذوي النفوس الخبيثة زادته حقدا ، رغم أنه كان مدركا في قرار نفسه أن كلام ابنه مقنعا له ، لكن كرامته وحقد بعض الأعراب عليهم زادت من غلظته إذا ما حن...

_ أخرج من منزلي ، ولا تعد إليه مجددا وافعل ما تشاء.

كان يشير للباب ، منكسر القلب يدعي الغضب وعيونه على الأرض.

_ أبي...

_ إذا أردتها فاذهب إليها ، لكن لم يعد لك مكان بيننا.

وهمّ بالمغادرة حين استوقفه « أمازيغ » بحزن بالغ وألم يطوف بصدره:

_ أرجوك لا تكن قاسيا معي هكذا ، ليس لي غيرك بعد أمي لروحها السلام. فلا تسمح لهاته العصبية أن تفرق بيننا.

سارع يمسح دمعه حتى لا يراه أحد ، وألقى كلماته وغادر بعدها.

_ اخرج ، أنت حر.

لحقه ابنه يحاول عناقه ، لكنه دفعه وأخذ يجره من ذراعه إلى الباب ، ودفعه خارجا حتى سقط ، وامتلأت عيناه دمعا ، تراه « ثنينة » وقد أحست بلذة لما رأته.

_ إياك أن تعود إلى هذا المنزل مجددا ، سوف تندم لأنك تبعت هاته العربية.

وأغلق الباب في وجهه يبكي بحرقة خلفه ، يبكون معه أولاده بعيدا بجانب أحد الجدران.

تقدم « يوبا » ناحية « أمازيغ » مقدما له يده ليساعده على الوقوف ، حزينا لحال صاحبه التي آل إليها بعدما سمع ما سمع بقلب مكسور ، يرى رفيق دربه ينهار أمامه يبكي مختنقا بحسرته:

_ قلت لك انس تلك الفتاة ، فلم تسمعني.

_ اصمت ، لن تفهم معنى أن تجد شخصا لطالما حلمت بلقائه ، يفهمك قبل أن تنطق ، ويبتسم في وجهك حين تعبس في وجهك الأيام ، ويحمل معك ضغوط الحياة ، فقط لأجل أن لا يراك تعيسا. كيف ستفهمني أنت الآخر فكلكم تتأثرون بكلام الآخرين وتمحون وجود الطيبين في هذا العالم ، الذين يظلون يدفعون الثمن عن أفعال الخبيثين... كيف تريديني أن أترك فتاة تراني كل عالمها ، الأمل الوحيد بعد فيض من الآلام ، يحمل معها تلك الهموم التي أرهقتها ويذب عنها إذا ما ظُلمت؟؟؟ لن أتركها ولو جاء كل هذا العالم ضدي ، إما هي أو اللحد يأوينِ.

_ وماذا عن والدك؟ خمس وعشرين عاما تنساها لأجل بضعة شهور؟ هذا هو العمى الحقيقي. كيف تنسى الفضل بينك وبينه وتمضي؟؟؟.

لقد طردك والدك ، وتبرأ منك ، وتصرّ عليها؟ إنه قمة الجنون. أيضا...

صمت قليلا فنظر إليه صاحبه،

العربيات طبعهن الخيانة ، فأخاف بعد هذا اليوم أن تأتيني تندب و...

_ يا لا وفاء الأمازيغية حين غدرت بي ، وتركتني لأجل أموال لا تنفع ولا

تضر ، وفي الأخير تعود منكسرة لي تطلب مني الغفران ، ما دخل أفعال الآخرين بما أشعر به أنا ، إذا خانت واحدة ، على كل النسوة من نفس العرق أن تخون؟ تفكير أبتر.

_ آه ، إذن حقدك على « دهية » هو الذي سيرمي بك إلى هاته النار؟!

_ لا ، حبي لـ« عروبة » كان لذاتها التي تشبهني ، وليس كما تعتقد. فطيبتها هي التي رمتني في بحر عشقها الأزلي ، وتفكيري الارتباط بها كان عن قناعة مني ، ولأنها تستحق أن تكون زوجة « آيت هني » بلا ندم.

_ حسنا ، تعال..

_ إلى أين؟.

_ سأعيرك سيارة أخي..

كان كلام « يوبا » بمثابة نور اخترق ظلمة يأسه ، لتتلاشى معه كل ويلاته بابتسامة واسعة.

_ شكرا ، أنا لن أنســـ...

_ أخاف أن تنسيك العربية ذلك.

وانفجر ضاحكا يضرب « أمازيغ » على كتفه ، فينظر إليه ، يرى صدقه ورجولته ووقفته معه.

_ تعرف يا « يوبا »، سيأتي يوم أعود إلى هنا وسيغير أبي رأيه اتجاه كل شيء ، سيحبها مثلما أحببتها وأكثر.

_ أتمنى ذلك ، فأنا لا أريد أن أراك تتألم للمرة الثانية ، وتخسر كل شيء ، والدك أهلك ونفسك. لأجل لا شيء..

_ اطمئن لقد كسبت أغلى شيء.. »

قطع رنين الهاتف تلك الذكرى المرة.

******

كان يلتقط الأكل من حاويات القمامة بنَهم ، ويطعم القطط التي تتلوى جوعا حوله ، كانت ولا تزال رفيقته التي تفهمه. فلا يحس بالأمان إلا رفقتها ، بين ثانية وأختها تضطرب فرائسه حين يتذكر ماضيه البائس. فلم تكن الحياة عادلة معه ، وما أكثر من أغرقهم طوفانها. جالسا على الأرض يتكئ على جدار أحد البيوت المقابلة لبيت « عروبة » ، يضرب نور القمر في عيونه فتدغدغهما ، ليسرع بإغلاقهما...

وفي بيت المسكينة ، كان أبوها يصرخ في وجه ابنه « سعيد » ، يسرد له لقاءه بالمجنون ، وكيف جرى خلفه يرشقه بأكياس القمامة وابنه يضحك عليه:

_ تضحك علي أيها العاق؟.

_ بل أضحكني تصرفه. آه أبي لقد تذكرت أمرا ، هل صحيح أن المجنون « عقيل » هو من قتل والده؟!.

_ قيل هكذا ، لكن الأقاويل تختلف ، فكل واحد يرويها على طريقته. الذي أعرفه أنه منذ موت والده وهو يجري في الشوارع ، غير جملة واحدة لا ينطق "

قتلت أبي " لكن أشك قد فعلها..

أغلقت الباب بهدوء بعد الذي سمعته:

_ إذن فقد قتل والده. لابد وأنه كان قاسيا جدا معه ويضربه كما والدي ، مما افقده رشده فلم يجد حلا غير التخلص منه.

واتكأت على السرير تحاول أن تلتحف بعد أن شعرت ببرد شديد فجأة ، واجتاحها شعور غريب مخيف..

_ يا رب يصل بخير آمنا. هل كان يجب أن يقع هذا الحادث الآن.

غفت قليلا ، وإذا بصوت قادم من النافذة فقامت تجري نحوها ، ناظرة إلى الساعة التي كانت تحط عقاربها عند الثانية والربع صباحا ، تسترق النظر من الستارة:

_ إنه هو ، لقد جاء...

بفرحة لا وصف لها تشير له ، وتنزل للطابق الأرضي بهدوء بالكاد تضع قدميها حافية ، خائفة ، تدعو أن لا يستيقظ أحد ، تفتح باب المستودع وتشير له بالقدوم:

_ اشتقت إليك.

_ وأنا أكثر. الحمد لله أنك وصلت بخير ، كنت خائفة أن يزوجوني غيرك.

_ لن يجرؤ أحد على أن يبعدك عني.

وعانقها بقوة ، مبللا بالكامل قد غسله المطر:

_ لا تتركني فليس لي أحد أحبني مثلك ، واحترمني أكثر منك.

_ مستحيل ، لا تتلفظي بهذا القول ثانية ، فأنا لا أتخيل حياتي بدونك.

تنحت قليلا ، تنظر إلى عينيه بعيونها الممتلئة دمعا:

_ شكرا ، لأنك تخاطر بنفسك لأجلي..

_ لأني أحبك وتستحقين السعادة فعمري فداكِ غاليتي.

فرحت بشدة ، وكانت تلك المرة الأولى التي تسمعها منه.

_ كيف يقولونها بالأمازيغية؟.

ضحك وهو تائه بها ، ذائب في عينيها ينظر إلى غرّة شعرها المنسكبة على حاجبيها ، يلامس شعرها الناعم:

_ حْمْلاغْكْ.

تهجيها بصعوبة ، يضحك عليها بوجهٍ كالقمر ليلة بدر التمام:

_ حملاكْ..

يضحك مجددا بهدوء حتى لا يسمعه أحد ، واضعا يده الناعمة فتنزلق على خدها الأنعم كحرير مما أشعرها بالحرج:

_ لا ، أعيدي مرة أخرى. حْمْ لاغْ كْ. الكاف هنا تغلقين بلسانك فوهة حلقك وتحاولين إخراج الصوت.

تكررها ، وتكررها ، حتى جعلت قلبه يدق بقوة ليضرب بين ضلوعه كزلزال. فلم يتمالك نفسه ، وسحبها إليه.

يمشي في الشارع بعدما بللت حبات المطر الباردة كل شبر منه ، متجها ناحية السيارة المركونة خلف إحدى البيوت. كان يفكر سارحا بشيء ما ، يلامس شفتاه مبتسما ، يتذكر ما حدث معهما..

« ...بعد أن طبع على شفتيها قبلة طويلة بقي يسرح ببراءتها ودفئها الذين زاداه ذوبانا ، فلا يشبع من عيونها الساكنة بلونها اللوزي التي تلمع فقط حين تراه:

_ تتزوجينني؟.

تسمرت مكانها غير مصدقة ، تومئ له برأسها أن وافقت ، تسبق الدموع فرحتها فاحتضنها إليه مجددا.

_لكن كيف سنقنع والدي؟ لن يقبل أنا متأكدة ، وكذلك أخـــ...

_ سسسسـ ، لا تكملي. إذا كنت حقا ترغبين بالعيش سعيدة معي ، علينا أن نعيش حياتنا دون النظر لهم ، لأنه ختم الحقد على قلوبهم الموصدة. أبوك قاسي لن يتفهم ولن يسمح لك بالزواج بي ، وأبي رجل متعصب ورافض لفكرة الزواج بعربية.

_ ماذا؟ حتى والدك؟؟.

_ نعم. لهذا اسمعيني سنذهب بعيدا عنهم ونعيش حياتنا ونحقق أحلامنا ، لأن هذا من حقنا. أما هم سيأتي يوم يندمون فيه على معاملتهم السيئة لكِ ، وأبي سأقنعه مع الأيام... »

صعدت إلى غرفتها وأغلقت الباب بهدوء.

_ السعادة من حقنا أكيد ، ولن نرضخ للظلم طالما لم نظلم أو نؤذي أحدا.

مازالت الابتسامة تعلو محياها الفاتن ، تحدث حالها ، تتذكر كل ما قاله لها ، ولم يرف لها جفن في ذلك الليل.

طرق شديد على الباب ، أيقظ الجميع مرعوبين ، وأخذ حازم ينظر إلى هاتفه:

_ إنها الخامسة صباحا ، من يزورنا الآن؟.

خرج مسرعا ناحية الباب ينتعل حذائه بصعوبة ، ليجد ابنه قد سبقه إليه حافي القدمين وفتحه. كان جارهم « صيّاد » واقفا عند الباب يبلع ريقه فينزل كأنه حجر بقاع بئر مهجور ، يعصر يديه شاحب الوجه الذي ابتلع عظمه لحمه.

_ ما لذي جاء بك إلى هنا في هذا الوقت الباكر يا« أحمد »؟!

هل حدث شيء ما!!.

_ لا أدري كيف أخبرك؟.

دنا منه والرعب يعلوه:

_ تكلم فقط ، لقد هززت قلوبنا.

_ طوال هاته الساعات الماضية لم أنم ، محتار هل أخبرك أم ألوذ بالصمت؟ وفي الأخير قـــ...

نظر إليه مطولا ، كأنه فهم ولم يفهم وزاد توتره ، فيقطع أفكاره السوداء صوت ابنه سعيد صارخا بغضب:

_ تحدث.

_ أنا لن أرضى لكم الدياثة يا جاري العزيز.

نظر الأب إلى ابنه بعدما صدقت ظنونه يتراجع للخلف خطوتين:

_ ابنتكما فتحت باب المستودع لرجل البارحـ...

لم يكمل كلامه حتى قفز حازم من مكانه يصرخ صرخة أيقظت النيام ، متجها نحو المطبخ يحمل بيده سكينا ليلحق به سعيد يحمل عصا. الرعب حل في ذلك الصبح الأسود ، وأمها في غرفتها خرّت على الأرض رافعة يديها إلى السماء..

فتح باب غرفتها بلا وعي ليضربه بقوة على الحائط ، وينقض عليها كوحش كاسر فيدكّ ذلك السكين بلا رحمة داخلها ، مرتميا عليها أخوها ضربا بالعصا ، يلهثان كضبع جائع يمزق فريسته تمزيقا...

_ ما هذا؟؟؟.

******

كانت تجري بسرعة ذلك الريح دون توقف ، تخترق أصوات أبيها وأخيها سكونه لتستقر في أذنيها ، تنهش عقلها نهشا. فتوقفها صرخة ، من شدة رعبها تبولت تحتها ، وتثاقلت خطواتها تنهمر عبراتها كنهر فاض على جوانبه امتلأ قهرا ، تبكي بحرقة.

تجري فتسقط وتعاود النهوض ، وهكذا كانت حالها ، يسحبها الخوف من خلفها ويجرها الأمل وصوت « أمازيغ » من أمامها ، لتجد نفسها على الأرض طريحة تحاول النهوض والإسراع قبل أن ينتشر الأنام ، وما أسرع انتشار الشائعات والأخبار بينهم كما البكتيريا في جسم الإنسان. تقف مرعوبة وتواصل جريها..

_ الحق بها لابد أنها قريبة من هنا..

_ لكن يا أبي لقد قال أنه رآه على الثانية صباحا ، تكون قد ابتعدت كثيرا.

_ اذهب يا مغفل..

يصرخ به بأعلى صوته ناظراً لزوجته بعيونه المحمرة ، وخرج بعدها تاركا إياها تنظر للأفق البعيد بعقلها التائه.

«...كان شيء يحرك ثوبها ببطء ، ترفع رأسها لتنظر ، فإذ هي ابنتها تومئ لها لتلحق بها.. فتقوم بحرس تحاول ما بجهدها أن لا توقظ زوجها ، متجهة ناحية المطبخ أين وجدتها بانتظارها:

_ « عروبة » ماذا بك يا حبيبتي؟! ما لذي أيقظك في هذا الوقت؟!.

نظرت إليها تود البوح لها بما يخالجها ، لكن لم تدري كيف. كان سريعا عليها كأم أن تفهم ما بداخل ابنتها ، فتفهمها قبل أن تنطق:

_ هل جاء إلى هنا؟.

نظرت إليها تلتهما الدهشة:

_ كيف عرفتِ؟.

_ أعرف هذا ، فوجهك الضاحك يخبرني ، تعودت عليه حين كنت تعودين من المدرسة منارة. كنت أعلم أنك التقيتِ به.

تفهُّم أمها وكلماتها أراحها فقامت تسرد لها ما دار بينهما ، تستشيرها عازمة على الرحيل معه لتشاركه ما تبق من حياتها بلا ندم ، فقد وجدت أخيرا من يكون رحيما معها ، طيبا ، ولسانه يقطر بالطيبات. ذا قلب عامر بالمحبة والإخلاص ، فلا تضام معه أبدا.

_افعلي ما يريحك ويسعدك يا « عروبة » ، أنا معك وأبارك لكما هذا الزواج. فلم يكن الزواج يوما بالغصب أو العنف ، وأنتِ لم تخطئي بحقهما أبدا. أنا هي من أخطأت بحق نفسها وحقكِ وحتى ولدي « سعيد » ، لم أختر له أبدا والدا طيبا وخلوقا فصار شبيها عنه بكل شيء...

_ لا تقولي هذا.

_ نعم ، هذا ما فعلته يا ابنتي فقد تقدم لخطبتي في ذلك الوقت ، وكان معروفا بقسوته ، لكن أبي فليغفر له الله غصبني عليه لأجل بضعة دراهم.

_ أمي يا حبيبة قلبي...

دمعت عيناها وأخذتها لصدرها تعانقها بقوة وتشم عطرها.

_ سأذهب لمكاني قبل أن يحس علي والدك ، اذهبي ولا تنظري خلفكِ أبدا ،

ولا تهتمي لأمري فأنا سأتدبره ، فقد تعودت عليه..

_ أمي أحبك..

التفت إليها وفي عيونها حزن بالغ:

_وأنا أحبك بقدر هذا الكون ، اعلمي أني قد استودعتكِ الله ، وأدعوه أن يسعدكما وتعيشان برعايته.

_ آمين. أعدكِ بأنني سأخرجك من هذا البيت الظالم أهله ، والله شهيد بيننا ، وأنا متأكدة أن « أمازيغ » سيحبك كثيرا فهو حنون جدا..

حاولت أن تكون قوية وتمسك دموعها أمامها كي لا تغير رأيها ، وغادرتها مبتسمة في قلبها غصة... »

******

تجري ، وتجري بلا توقف.

كما تجري الأيام سريعا ، تأخذ منا براءتنا وطيبتنا.

تكاد أنفاسها تنقطع ، والمطر قد غسلها كما غسل « أمازيغ » قلبها الطاهر ، فامتزجت دموعها بحباته ، على خدها الناعم تتساقط.

« ... هذا طائرك؟!.

_ نعم ، كناري.

_ إنه جميل.

_ تملكين هاتفا؟.

_ قلت لك لا أملك.

_ آه ، لقد نسيت. سأشتري لكِ واحدا مادام أعجبك هذا.

_ أشكرك. لكن أخاف أن يراه أحد ، فلا داعي له.

_ حسنا.

بقي يتأملها وهي تشاهد الصور بابتسامة زينت وجهها ، فدنا منها قليلا يريد أن يلمس شامتها ، وما إن أحسّت به انسحبت قليلا عنه ، لتسمعه يرتل جملة بالأمازيغية لم تفهمها:

_ سْعِيذْ أْلَّانْ تْساَحِرَنْتْ.

_ هذه نفسها التي قلتها لي منذ مدة. ماذا تعني؟.

_ هممم ، لديك ذاكرة قوية.

احمرت خجلا مطأطئة رأسها ، وتركته سارحا في وجهها:

_ تعني؛ عيناكِ ساحرتين.

شردت في عيناه الزرقاوات:

_ وماذا نقول؛ عيونك كبحر لجي مرّة عذب ومرّة مالح.

ضحك عليها حتى برزت أسنانه تلمع كالدرر ، فلطالما كانت تلك الضحكة على الدوام تسحرها:

_ أْلَّانْ إكْ أَمْ لْفِ)حَرْ إهَاجْنْ.. ».

توقفت لتلتقط أنفاسها ، فلم تعد تقوى على الحركة ، كان الرعب يسري في كيانها ، فلا يشجعها على المواصلة قدما ، سوى كلمات « أمازيغ » ووجوده إلى جانبها.

******

وداخل السيارة كان « أمازيغ » ينتظر موجها بصره كل دقيقة لساعته ، متخوفا يساوره الشك الذي ضيق صدره ، فجعله يقرر العودة إليها ليستعلم عن سبب تأخرها. وترجل من السيارة:

_ ما كان يجب أن اسمع منكِ وأتركك هناك ، يا ليت جلبتك معي.

التفت يسارا كأنما تهيأ له أنه سمع صوتا قادما من بعيد ، فذهب ناحيته بخطى بطيئة التي سرعان ما هرول باتجاهه..

_ آه يا رب ، أرجو أن لا تكون...

يلهث في ذلك الطريق ، وفجأة توقف...

******

التقيا عند تقاطع مؤدي إلى الثانوية ، يلهثان:

_ وجدتها؟.

_ لا ، قلبت الأرض ولم أجدها.

يسعل غير قادر على رد أنفاسه:

_ اللعنة ، اذهب إلى المحطة وأنا من هذه الجهة.

وركض بسرعة يهز الماء تحته هزا...

أما عروبة فكانت تركض.

خائفة ، ابتلت بالكامل ، ولم تعد تقوى على خطوات أخرى بعد. فقد خارت قواها وأي نسمة ريح ستوقعها ، ترتجف ويرتعش بدنها.

_ « عروبة »..

توقفت وتوقف قلبها مع ذلك النداء ، تلهث وتلهث منقطعة النفس لا تقوى على لف رأسها:

_ هذه نهايتي؟!.

_ أين ستهربين مني سوف أقطعك إربا.

سأجري ، لن أسمح له بأذيتي. لا ، لا.. « أمازيغ » ينتظرني لم يتبق الكثير ، لا.. ماذا لو قتله؟ سأهرب بعيدا..

آه ، ما بال هذه القطرات تحولت إلى جمر ينزل على جسدي ، وذلك الهواء كأنه سُحب مني. أريد التنفس ، أنا أختنق...

أرادت التقدم لكن شيء ما شدها ، وخطواتها التي تسحبها الأرض إليها فتثقلها كأنما أصابها الوهن.. لم تعد تسمع أي صوت ، إنما صمت ، سكون رهيب حلّ. تسمع فقط دقات قلبها المتباطئة وحبات المطر تدق على الأرض بقوة كأجراس كنيسة بلا توقف ، وذلك الريح المزعج صوته ، ينزل على أذنها

كنصل ساخن في بركة ماء ، بدأ الصوت يختفي تدريجيا:

_ هل نجوت منه !؟ لا ، نعم . لا ، آه..

******

توقف عند ذلك الصوت الذي كان لفتاة داخل سيارة على حافة الطريق مع عشيقها يعاشرها كأنما حيوان انقض على أنثاه:

_ اللعنة عليك وعليه ، كلبة لقد أرعبتني حسبتها « عروبة ».. تفوه ، حثالة.

ومضى راجعا يمشي بعجلة ، بين تلك البنايات:

_ ما لذي يحدث لكِ؟ لقد تأخرتِ يا « عروبة » ، تأخرتِ.

ما إن انعطف حتى فتح عينيه غير مصدق لما يرى يلهث ، فتخنقه أنفاسه المتصارعة بصدره ، التي لم تسمح له بالتركيز ، برغم كل محاولاته ، كأن عيونه أصابها العمى ، ولازال كذلك شاخص البصر يهمهم:

_ عـ ، عُروبـ.. هذا أنـْ.. لا ، إنه يحمل سكينا..

يجري بلا وعي نحوها..

_ ما هذا؟! صراخ؟.

صحت من صراعها النفسي لتلتفت خلفها ، فتصرخ بأعلى صوتها صرخة لا حد لمداها ، صرخة مرعبة.

_ لا ، لا.

كانت دموعها تنهمر على خديها ، تنظر إلى عيون والدها الشر يقفز منهما ، يستل سكينه المضرجة بالدم ، تتقاطر فتهوي إلى الأرض وتختلط مع مياه الأمطار فيلتقي النقي بمثله ، بدماء المسكين البريء.

تثاقلت حركتها تحاول أن تصدق الذي حدث ، لكن عبثا ، تحسبه أحد أحلامها المزعجة فتلطم خديها بقوة لتصحو منه.

أما والدها فكان واقفا ينظر إليها وإلى السكين ، لم يكن يدري أنه سيندفع ناحيته ليستقر في قلبه.

حاولت أن تتحرك باتجاهه ، مستديرة فسقطت على ركبتيها تسحب نفسها إلى الخلف بيديها حبواً. فتقدم إليها « حازم » الذي لم يشفى غليله منها ، وانقض عليها كذئب جائع..

إذ بلكمة قوية تنزل عليه فطرحته أرضا ، ولكمة أخرى تليها الأخريات ، يركله بلا شفقة ، يكاد يمزق بطنه بلكماته الشديدة..

تلهث ، وتلهث.

ناظرة للجثة تبكي بحرقة ، حاولت الاقتراب منه تزحف نحوها:

_ « عروبة »..

بصوته المرتجف الحنون يناديها ، يقترب منها ليحتضنها بالكاد يسترجع أنفاسه إلى صدره.

_ هيا نذهب.

_ قتله.

تشهق فيمسح دموعها بيديه من عينيها اللتان تورمتا من البكاء ، اقترب ليجس نبضه فوجده ميتا:

_ سيتجمع الناس و يتهموننا دعينا نغادر ، هيا يا حبيبتي.

_ لا ، لا.

سحبها بقوة وجرى متجها نحو سيارته البعيدة عنهم بخمس دقائق ، يلتفت في ذلك المكان الخالي على غير العادة ، وما إن قارب على الوصول حتى سمع أصوات ، فاحتمى داخل فجوة بين بيتين وعلى الأرض علامة تدل بأن صاحبيه متنازعين عليها ، رغم أنها لم تكن تستحق. فهكذا هم البشر على أتفه الأسباب يتعاركون ، احتضنها كي يخفيها منهم ، يمسك أنفاسه لكي لا يحس عليه أحد. أما هي فقد ذهب عقلها بعيدا يجول في خيالها البريء ، تهمس له.

_ ماذا لو كانت حياتي مختلفة؟.

_ سسسسـ ، سيسمعك أحد. اهدئي..

أغمضت عينيها وغادرت مع أحلامها.

" أبي لقد جاءنا مدرس جديد اليوم.

_ حقا؟! وكيف هو؟.

_ إنه إنسان متواضع ويعمل بجد ، هو أمازيغي..

_ آه ، فعلا هم أناس كرماء ، ومخلصين في عملهم. لابد وأنه يحسّ بالغربة..

_ لم قد يحس بالغربة أليس بين أهله.

_ نعم يا ابنتي ، لكن لا تنسي أنه وبرغم هذا بعيد عن أهله ، وسط ناس كل واحد منهم ينظر إليه بطريقته. يجب أن ندعوه ونحسن ضيافته.

تضحك معه وهو يلاعبها ، فإذا بسواد يمزق تلك الضحكات ، ويظهر خلفها وجه « أمازيغ » المبلل ، فتحدث نفسها:

_ أنت وحش يا أبي ، وحش. أنا أكرهك.

وتجهش بالبكاء ، فيشدها بحضن قوي:

اهدئي يا حبيبتي سينجلي هذا الظلام قريبا ليأتي النور ببشراه.

_ لقد قتل المجنون المسكين ، دفع بنفسه ناحية السكين لينقذني.

تبكي بلا انقطاع ، تئن ، وترتعش في حضنه. وفجأة سمعت صراخا قادما من مكان جثة « عقيل » المجنون.

_ لابد أنهم وصلوا ، هيا. امشي بهدوء حتى لا نلفت الانتباه إلينا ، فالسيارة لم تعد بعيدة.

كان يسحبها ، لكنها لم تزال تنظر إلى ذلك الاتجاه وواصلت سيرها معه.

وصلوا إلى السيارة وركباها ، فأخذ منديلا ليمسح لها دموعها وماء المطر الذي غسل وجهها ، فقامت بسحب منديله الذي أعطاه لها في فصل الشتاء:

_ هذا نفس المنديل الذي أعطيتك إياه؟!.

مصدوما ينظر في عينيها ، الذي أحزنه رأيتهما متورمتين ، تومئ برأسها ، والفرحة تأسره:

_ « أمازيغ ».

_ نعم يا عيوني.

_ هل سيحتمل جبل الجليد الوقوف في وجه نيران مستعرة التهمت كل ما هو جميل داخلي؟!.

نظر إليها بعمق.

_ نعم سيفعل ، ستذيبه وسيطفئها ليسقي من جديد بطهارته ما أحرقته النيران ويعود جميلا ، أجمل من قبل.

ابتسمت ، فقبل جبينها وانطلقا نحو سعادتهما أين سيتحدان معا ، مدركين ومقتنعين أن الاختلاف مهما كان لن يكون أهم من المواقف الإنسانية التي تقربنا من بعض. وأنه مهما سمعنا لن يكون كما تراه الأبصار ، والقلوب القاسية سيكون مصيرها الكسر يوما ما ، كما كسرت قلوب الأبرياء ، وأن الظلم مبتور مهما طال..

******

الفهرس

..... ٦

لماذا أنا؟ ١٤

الجحيم تحت أقدامه ٣٤

اللقـــــاء ٤٣

سامحيني ٥٩

ولدت من طرفكِ ٧٥

الحلم الأخرس ٩٧

الفرحة اليتيمة ١١٦

فوضى الأحاسيس ١٣٣

حطام الذكريات ١٥١

الوعد ١٦٦

الانتقام من رحم الغفران ١٨٦

قتلت أبي ٢٠٠

الفهرس ٢٢٢

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع